

ابراهيم فرغلى
ابتسامات القديسين
رواية
تجليات أدبية
ميريت
ORANGE
STP
HANEEN
Nom
Prenom
APTR

ابتسامات القديسين

ابتسامات القديسين
رواية

إبراهيم فرغلى

الطبعة الثانية، ٢٠٠٥

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

merit56@hotmail.com

الغلاف : **أحمد اللباد**

المدير العام : **محمد هاشم**

رقم الإيداع: /٢٠٠٣

الترقيم الدولى:

إبراهيم فرغلى

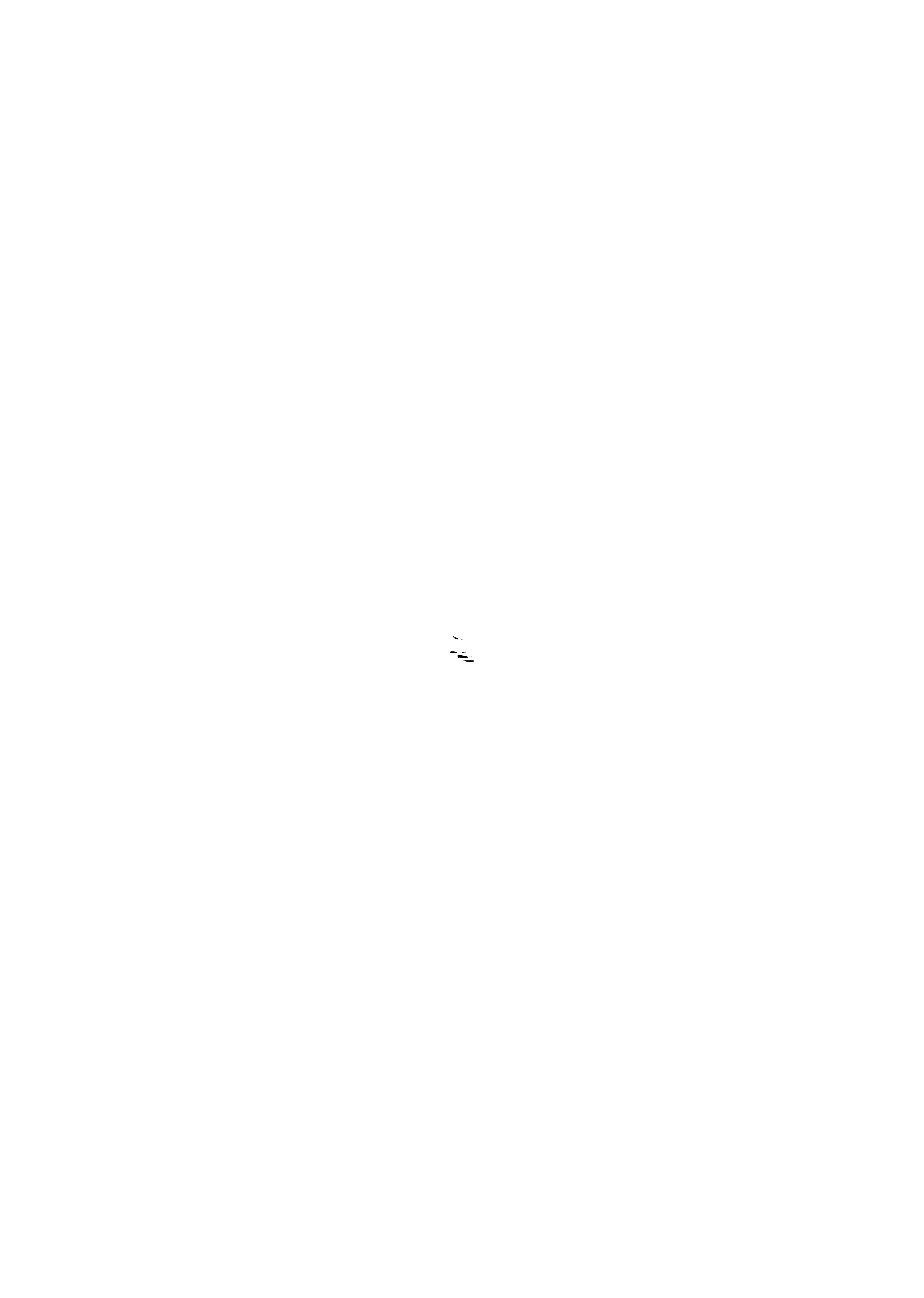
ابتسامات القديسين

رواية

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٤

زمـــن الحـــب لـــيس كبيرا ولا صغيرا: هو الإدراك الفورى لكل الأزمنة فى زمن واحد، بكل الحيوات فى هنـــيهة واحدة. لا ينقذنا من الموت، بل يجعلنا نراه وجها لوجه.

أوكتافيو باث



القسم الأول

وشيش داخلي..

فتحـــت عينيها مع أولى رنات الموبايل. مدت يدها إلى الجهاز الأنيق صغير الحجم الذى يعلو المنضدة المستطيلة المجاورة للفراش، المحفــور علـــى ســـطحها نقوش آسيوية بارزة. استغرقت الإضاءة الزرقاء التى توهجت بها شاشة الجهاز عدة ثوانٍ أتاحت لها أن تلقى نظـــرة خاطفـــة على التوقيت المكتوب إلكترونيا فى أعلى الشاشة: 6:30 أغمضـــت عينيها فى محاولة لاستكمال نومها، لكن الأفكار العاصفة برأسها حكمت على محاولتها بالفشل.

نهضـــت بـــبطء. أنزلت ساقيها إلى الأرض تبحث بقدميها عن "الشبشـــب"، بينما عيناها نصف المغمضتين تتابعان الضوء الشاحب المتســـلل مـــن خصـــاص الشـــيش اللاحق للنافذة المفتوحة. انتبهت لزقـــزقات العصـــافير الـــتى تـــتكاثف فى مثل هذا الوقت المبكر، وومضت ذاكرتها بلقطات سريعة تسللت إليها عبر حواجز الزمن.

اتجهـــت إلـــى الحمام مروراً بالصالة التى تتوسط البيت وتطل علـــى غـــرفه الخمـــس، والـــتى وضع أبوهها بها جهاز التليفزيون واعتبرها غرفة المعيشة. ونقل غرفة السفرة التى كانت تحتل المكان إلـــى الغـــرفة التى تحتوى مدخل الشرقة الكبيرة المطلة على "ميدان طلعت حرب". مرت بالردهة الطويلة المجاورة لباب الشقة الثانوي،

والـــتى تـــتراص على يسارها: الثلاجة، "الديب فريزر"، ثم الغسالة يجاورهـــا حـــوض صغير تعلوه مرآة مستطيلة. وأخيرا يعلن الباب المفـــتوح فـــى الواجهة انتهاء الردهة بالحمام. أما إلى اليمين فكان المطبخ الواسع المفتوح بدون أبواب.

غسلت وجهها عدة مرات. تأملت عينيها اللتين علقت بهما آثار الـــنوم والإجهـــاد. لاحظت زيادة انتفاخ جفنيها السفليين عن المعتاد، وظلت صورتهما عالقة بمخيلتها بعد أن أغمضت عينيها وهى تضع رأســـها تحـــت المـــياه المتدفقة من الصنبور الفضى اللامع الحديث الطـــراز وتركـــت المياه تنساب فوق رأسها حتى تأكدت من ابتلال شعرها الأسود الحالك، القصير نسبيا، وانتباه أعصابها بفعل دغدغة المياه الباردة. جذبت المنشفة المعلقة إلى يسار الحوض "الروز" الذى تقـــف أمامـــه، وجففـــت بها شعرها ووجهها فى طريقها بين الحمام والمطبخ.

بحثـــت عن جهاز تسخين المياه الكهربائى حتى وجدته. فتحت زجاجـــة مـــياه معدنية وسكبتها فيه. ضغطت زر التشغيل، واتجهت صـــوب غرفة النوم. فتحت حقيبة السفر الكبيرة، وعبثت بمحتوياتها قلـــيلا حتى وجدت الكيس الذى خرجت به مساء الأمس من السوق الحـــرة بعـــد إنهـــاء إجراءات وصولها. أخرجت زجاجة البراندى الفرنســـى المفضـــل لديها:'Three Barraels'، واتجهت بها إلى المطبخ مرة أخرى. التفتت إلى باب الصالون على يمينها، والذى يواجـــه باب الشقة الرئيسي. لاحظت وجود جهاز (Hi FI) ضخم يعلـــو أحد رفوف المكتبة المجاورة لباب الصالون، فغيرت اتجاهها

فــورا، وتوقفــت أمــام الجهــاز وهى تتأمل مجموعة الأسطوانات المتراصـــة إلـــى جواره. اختارت من بينها أسطوانة لـــ "بول آنكا". فتحت باب الجهاز الذى خرج باتجاهها متيحا الفرصة لاستقبال ثلاث أســطوانات، ووضـــعت الأسطوانة وأعادت إغلاقه ثم ضغطت زر التشــغيل. وقـــبل أن تخرج من الصالون انساب الصوت الرجولى الشـــجى يغـــنى أغنيته الشهيرة 'PAPA'. كان هذا كفيلا بهزها من الأعمـــاق، لكنها اكتفت بأن أدارت ظهرها إلي، متجهة إلى المطبخ بخطـــى ثقيلة، تعلق البشكير الأخضر القاتم على كتفها، ترتدى "تى شـــيرت" أبـــيض قصيرا يتقاطع فى منتصف ارتفاع ردفيها مع لون "الكيلوت" الأسود الصغير تحته.

انتهـــت من إعداد القهوة الصباحية بنفس المعايير اليومية، وكما تطلـــبها فى باريس أو غيرها، قهوة سوداء قوية بدون سكر بعد أن أضافت إليها مقدار ملء غطاء زجاجة البراندى من محتواها. جلست علـــى الأريكة الوثيرة المغطاة بقماش قطيفة بلون دم الغزال، والتى تتوســـط الصالة. التقطت سيجارة من علبة السجائر "الجلواز" بلونها الأحمـــر المميز الذى ينتهى بدرجة من اللون الأرجوانى وأشعلتها. تجرعـــت رشفة من القهوة بعد أن استنشقت رائحتها المختلطة بعبق البراندي.

بدت واجمة وهى تحدق باتجاهي، دون أن ترانى بطبيعة الحال، وهو ما أتاح لى تأمل ملامح وجهها. لم تكن شقراء مثل أمها، لكنها احتفظـــت بشـــكل العينيـــن الواسعتين بلون رمادى داكن، مظللتين بـــأهداب طويلـــة أضـــفت على نظرات عينيها الحادة عمقا زاد من

جمالهـا الحاجبان العريضان المزججان بعناية. ورثت عن أبيها لون بشرته القمحية، وشعره الداكن الثقيل، ونعومة شعر عمتها نادية.

أعرف أنها لا تراني، وأدرك أنها تفكر فى أبيها، وتتساءل عن السبب الذى جعل عمتها تطلب منها الحضور إلى المنصورة للمرة الأولى منذ سافرت إلى باريس قبل خمسة عشر عاما مضت.

مـع الـتكرار الثالث لأغنية "بول آنكا" استعادت شريط حياتها، وثبتـت اللقطات البعيدة التى جمعتها بأمها وأبيها فى المنصورة، أو فـى الإسـكندرية. مشـاهد ضبابية بالأبيض والأسود، على عكس اللقطـات الـتى جمعتها بأبيها فى باريس أو دبى، فقد بدت واضحة تماما وملونة.

كانـت تحـدق باتجاه صورة أمها المؤطرة ببرواز ذهبى فخم، والمعلقـة على الحائط المواجه. اغرورقت عيناها بالدموع. لكنها لم تـبك. تـتأمل ملامح أمها التى بدت محتفظة بملامح عصرية رغم مـرور كـل تلك السنوات: عينان واسعتان زرقاوان، شعر كستنائى فاتح تميل بعض خصلاته إلى اللون الذهبي، يحيط بوجهها المستدير، ترسـم ابتسامة تزيد من جمالها دون أن تفتح شفتيها المنمنمتين أسفل أنفها الصغير المنحوت وفقا لمقاييس الجمال النموذجية.

انتفضـت وكأنها تذكرت شيئا بشكل مفاجئ. اتجهت إلى غرفة النوم التى تتوسط المسافة بين غرفة السفرة والصالون، وعادت بعد دقـائق وفـى يدها أسطوانة لمطربة تسمى "أنستاسيا" - ويبدو أنها حديـثة العهد لأننى لم أكن أعرفها فى حياتى السابقة - استبدلت بها أسطوانة "بول آنكا".

صـــوت قـــوى له بحة ذكرتنى بشكل شخصى بمجد المطربات اللائـــى عرفتهن أمثال "تينا تيرنر" و"ديانا روس" و"دونا سمر" وحتى "ويتنى هيوستن". بدأت تتراقص مع الإيقاع القوى المنظم. ابتسمت، وكنـــت أستطيع أن أقرأ أفكارها، فقد تذكرت شخصا يسمى "ديفيد"؛ عـــندما اســـتمع إلى "أنستاسيا" لأول مرة.. قال لها إنه لا يعلو على صـــوت الزنوج، لكنه اندهش تماما لأنها أوضحت له أن "أنستاسيا" ليســـت ســـمراء.. ولم يصدق ذلك قط إلا بعد أن شاهد "فيديو كليب" لواحـــدة مـــن أغنـــياتها. ومع ذلك فقد علق قائلا بيقين.. لا شك أن عـــروقها تجرى بها دماء سمراء. هزت رأسها فى عصبية وتأففت كأنها استاءت لاستدعاء التفكير فى "ديفيد".

تناولـــت قـــدح النسكافيه وهى فى طريقها إلى الشرفة. توقفت فجـــأة. عـــادت إلى غرفة النوم، والتقطت من حقيبتها "روب ساتان" طويـــلاً بلـــون كريمى فاتح. خرجت إلى الشرفة، وكانت الحركة قد زادت بشـــكل واهن فى الشارع الهادئ. روعها التغير الذى أصاب المكان.

تأملـــت العمارة الحديثة شديدة الارتفاع التى حلت محل الخرابة التى كانت تواجه مدخل البيت. وإلى يسارها التصقت بها بناية أخرى بـــدت أحـــدث تصـــميما تراوحـــت ألوان طلائها بين درجات البنى والـــرمادي. اخـــتفى صـــف الدكاكيـــن المتلاصقة الذى بنيت مكانه العمارتان. حاولت أن تستدعيهم بذاكرتها المنهكة وتنعش ذاكرتى فى نفـــس الوقـــت: عـــم محمد المكوجي، مخزن تحميص اللب والفول الســـودانى الذى كان عم سند يتنقل بينه وبين محل البيع فى مواجهته

والـــذى أغلق منذ زمن بعيد وتحول الآن إلى مطعم للفول والطعمية. الكشـــك الصـــغير المستقر خلف الدكاكين والذى كانت أم حمدى قد اتخذته مكانا لإعداد الشاى والقهوة للمارة، ولأصحاب الحوانيت حول المـــيدان، بدءا من عم بكر البقال الذى لا يفصله عن بقالة عم محمد فهمـــى سوى محلين أخريين كلاهما أيضا يعمل فى مهنة واحدة هما عـــم فـــوزى ترزى القمصان الرجالى وعم حجازى المتخصص فى الملابـــس الجريمي. ثم عم عبده الحلاق، وأخيرا عم فاروق صاحب محل تصليح الأحذية أسفل العمارة.

تذكـــرت ضـــجيج موقد اللهب الضخم بوشيشه العالى قادما من محـــل الفـــول والطعمية الصغير المواجه للباب الخلفى لمسجد فريد المصري. استعادت صوت بائع لقمة القاضى الذى كانت تعرف من صـــوته الحـــاد أن الساعة تدق السابعة، ولم يتأخر يوما عن الموعد بصـــوته الـــذى يأخذ درجة حادة عالية وهو يصرخ بتكرار لا، يمل ونغمـــة رتيبة "لوكا ميديس"، ويعقبها بجملة لم تعرف لها تفسيرا قط وهـــى: "لوكمة دى لوكمة". ويختلط الصوت الحاد بأصوات مذيعى بـــرامج الشرق الأوسط الصباحية قادمة من مذياع ضخم يعلو رف خشـــبى وأســـفله يقـــف عم محمد المكوجي، وهو يضرب بالمكواة الحديديـــة الثقـــيلة فى يده على أثواب الزبائن المغطاة بـــالفوترة أو القماشـــة، التى تحول لونها من الأبيض إلى درجة قاتمة من درجات اللـــون البنـــي، بفعل حرارة المكواة، مخلفا تلك الطرقات العشوائية المكتومة.

وسـرعان مـا يعلـو الصـوت الخشن لبائع الجاز فى أرجاء الميدان: "يااصلى يا جاااز".

بيـنما يجلس صاحب الصوت؛ العجوز ذو اللحية البيضاء بلون الـثلج إلـى مقود العربة الكارو مستندا إلى ما يشبه أسطوانة مطلية بلون أصفر فاقع.

ابتسـمت عـندما تذكرت مشهد صندوق القمامة الذى كان يبدو وكأنـه دولاب صغير مستطيل الشكل من الحديد الصدئ كان مأوى ليلـيا للقطط وموردا صباحيا لأكل الكلاب الضالة، والتى سرعان ما تصـبح هدفـا لطلقات رجال البلدية، فتنتفض هى فى فراشها على صيحاتها الملتاعة الكئيبة.

كان جلوسها فى هذه الشرفة، فى طفولتها البعيدة تلك، يتيح لها أن تطـل- عبر الخرابة- على البناية القديمة المبقعة باللون الأصفر الباهـت، والملصـوق علـى جدارها الجانبى صورة ضخمة لعلبة سـجائر "بلمونـت" تمـتد من الطابق الثانى وحتى الطابق الخامس. ويتوسط هذا الجدار نافذة عالية تجلس فيها سيدة عجوز طوال النهار بـلا أدنـى حركة، تذكرها بـمارى منيب فى مسرحية "إلا خمسة" لكنها صامتة تماما كأنها بكماء.. وربما عمياء أيضا!

أمـا إلـى اليمين فكانت الشرفة تطل على الميدان الوحيد بحى "توريل" العريق، وعلى الجهة الأخرى من الميدان يأخذ مسجد "فريد المصري" ناصية كاملة ويمتد بعده "شارع طلعت حرب" حتى مزلقان القطار القديم باتجاه أول حدود "جديلة".

الآن لا تـــرى سوى شرفات العمارة المواجهة الفخمة استبدلت بشـــرفاتها إطـــارات الألوميتال، ولا تبدو فى أى منها أدنى مظاهر الحياة.

تركــت الشرفة. توجهت إلى المطبخ لإعداد قدح القهوة الثانى والإنتظـــار. لمحت عقارب ساعة الحائط الخشبية العتيقة المعلقة فى بهو غرفة المعيشة تشير إلى الثامنة والنصف. اندهشت لأن ساعتى زمن كاملتين مرتا منذ استيقظت. لكنها تذكرت أن ساعة الموبايل ما زالـــت مضـــبوطة علـــى توقيت فرنسا. لم يبق على موعد حضور عمتها سوى نصف ساعة.

أعرف أن عمتها هى الأخرى تتحرق لرؤيتها بعد غياب طويل كانت قد ودعتها قبله طفلة لا يتجاوز عمرها خمس سنوات، وإن لم تنقطع اتصالاتهما التليفونية والبريدية خلال كل تلك السنوات.

نعـــم.. ستحضر وستطن أذناى بالوشيش الذى يملأ رأسها ولا يسمعه سواي، إلى هنا حيث أنتظرها أنا أيضا بلا أى أمل.

ناديـــة.. تـــوأم رامـــى وحاملة وشيش أفكاره بفضل حساسيتها الشـــديدة وقدر التوأمة. نادية.. وجعى وأنين روحي، تماما كما كان رامــــي، ولعلــــه لا يــــزال، وجعهـــا الذى لا يستطيع أحد سواى أن يشعر به.

أطياف النفق..

كمــا كانت - وحدها - تشعر برامى كتوأم نموذجي، كنت أنا الذى أشعر بها وحدي، بعد تلك الرحلة الطويلة عبر نفق مظلم حلقت فــيه هائما خارج حدود الزمن، أستمع إلى خواطر الأطياف الهائمة حولى يتخبطون معى فى هذه الفوضى الضبابية.

وهــا أنــا ذا أعود إليها على يقين من أنها لن تدرك وجودي- كعادتهــا- هى التى لم تنشغل طوال حياتها سوى بــرامى ووشيش روحه الصاخب المتواصل.

نادية.. "البلية" كما أطلقنا عليها فى طفولتنا، وحبيبة حودة، الذى أحرق قلبى غيظا من مهاراته المتعددة فى صيد الحمام ولعب الكرة وقــيادة الموتوســيكلات، والــذى أحبــته هى لمهاراته، ناهيك عن وســامته، ومظهــره الرجولى المميز الذى يسر له بزوغ لحية كثيفة غزيــرة، صــنعت له مع شعره الطويل الناعم جاذبية، ورفعت من مقــدار "الكاريزما" التى كان يتمتع بها، خاصة مع الفتيات، وأولهن ناديــة. لم يكن لى أمل فى أى شيء حيالها. ولم يخطر ببالها إطلاقا أنــنى أحــبها. لم يمر ذلك بخيالها، ليس فقط بسبب حودة، أو لكونى صــديق أخــيها "الأنتيم"، ولكن لأننى "أبو عضمة زرقا"- كما أطلق

علـــى بعض السخفاء- المدقوق على ذراعى اليمنى علامة الصليب، وحبيب كريستين كما كانت تتوهم.

ناديـــة.. كانـــت أحـــد أسباب عودتى من النفق المظلم إلى هذه الحياة الفقيرة مرة أخرى: شبح غير مرئى يهيم طائرا مع الأثير على نغمات موسيقى روحها التى لا يسمعها أحد.

لـــم تشـــعر يومـــا بـــأى شـــيء خارج محيطها القريب بسبب المونولـــوج المستمر فى ذهنها بوحى من أفكار رامي، أينما كانت، حتى لو اختلست دقائق لتلقى بجسدها فى "البانيو" تحاول الاسترخاء، فسرعان ما ستنتفض، لأن قلبها اعتصره إحساس بالألم لابد أن يكون قد انتقل إليها من قلب رامى المفرط الحساسية والموجوع انقلب أبدا!

زوجها الذى قرأ "الكاماسوترا" والروض العاطر للشيخ النفزاوى اعـــتاد ممارسة الجنس معها على ضوء الشموع، وصوت الموسيقى الصاخب لكى يجتذبها بعيدا عن أفكار رامي، حتى لا تفاجئه بصدمة انفـــتور، إذ ينقبض قلبها، وتتحول بين لحظة وأخري، إلى كومة من اللحـــم، فاقدة لأى من مظاهر الحياة تحت جسد زوجها، وهو يحاول بكـــل جهده- قبل الأورجازم بلحظات- أن يعتصر ثدييها، وما تصل إليه يداه من أجزاء جسدها ليعيد إليها توهجها.. دون جدوى.

لكـــنه لم يفقد صبره قط، فقد كان شرودها الدائم هذا واحداً من أســـباب انجذابه لها فى كلية الطب التى اشتركا فى الدراسة بها. هذا الشـــرود الذى يجعل وجهها الملائكى يقطر بالعذوبة وهى تفرج ما بيـــن شفتيها قليلا فتبدو وكأنها تبتسم- دون أن تفعل- وهو ما حفز

علـــى ذاكـــرته حســـا رومانسيا لم يستطع تفسيره، ولأجله قرر أن يتزوجها.

وما زال شرودها واحدا من علامات شخصيتها، تماما كما هى حـــالى الآن، روح شاردة بلا جسد. كتلة معتمة لا تعكس ضوءا ولا تملـــك وهجا داخليا يجعل منها كيانا محسوسا. أحلق هائما، وأمتلك القدرة على التقاط الأفكار التى تنقل الأرواح الهائمة حولي. لا شيء هـــنا مما وضع- فى حياتى الأولي- كنقش على روحي، لا صليب، ولا وجود لجسد مثقل بخطايا لم يرتكبها.

القديسون المتقاعدون لا دور لهم هنا، لا شهوة من أى نوع، ولا حـــور عيـــن ولا أبكار أيضا. الوجود الحقيقى يُبدأ بعد انتهاء رحلة الـــنفق.. رحلتى المؤجلة فى الزمن.. لكننى عدت لأصفى حساباتى مع الخوف دون أن أعرف من أين أبدأ.

بعـــد لحظـــات ستنطلق دقات جرس الباب معلنة حضور نادية، وســـتفتح حنيـــن الـــباب، وتعانق كل منهما الأخرى عناقا هيستيريا مشـــوبا بمشـــاعر عمـــيقة تليق بأم بديلة وابنة أخ لم تر أى منهما الأخرى منذ أكثر من خمسة عشر عاما.

ظلـــت ناديـــة تحدق بابنة أخيها لدقائق، بنظرة عطوف، كأنها تحاول أن تقرأ مرور السنين على ملامح وجهها. وأن تعتذر لها عن تصـــاريف القـــدر، وربما لأنها، أيضا، كانت تريد أن تتأكد أن ابنة أخيها قد وصلت سنا تتيح لها أن تعرف الآن.. كل شيء.

سألتها: انت عندك كام سنة دلوقت؟

-٢٠ يا عمتي.

بـــدت ناديـــة متماســـكة، وشديدة الثقة بما تريد أن تظهره من مشـــاعر لابنة أخيها. كتلة من الرقة والرهافة اللتين ميزتا شخصيتها منذ طفولتها وحتى هذه اللحظة. والآن، وهى تتسلم ما تعتبره أخطر مســـئولية فى حياتها، يتعين عليها أن تستعين بمخزون القوة النفسية المـــتراكمة لديهـــا مـــن خبرات رامى الداخلية العميقة. لكنها أجلت مـــا تريد أن تقوله حتى تعرف من ابنة أخيها تفاصيل سنوات الغربة الطويلة فى باريس.

أصـــرت نادية على إعداد الفطور بمفردها. استعانت بالموجود فـــى الـــثلاجة مما كانت قد أحضرته هى فى اليوم السابق لوصول حنيـــن. سألت حنين عمتها عن جدها وجدتها، فأخبرتها أنهما يقيمان فترة الصيف بالإسكندرية وأنهما ينتظران زيارتها نهاية الأسبوع.

تأملـــت حنيـــن مائدة الفطور بشغف طفولي: طبق فول بالسمن الـــبلدي، وآخر تراصت به شرائح الجبن الرومى واللانشون. طبق بـــيض بالبســـطرمة. عسل أبيض. قشدة. وطبق صغير احتوى كمية مـــن "المورتـــة" البيضاء أعادت لحنين ذكرى طقوس تسييح الزبدة تحت إشراف جدتها:

تجلـــس الســـيدة العجـــوز- المستأجرة من إحدى قرى الريف المحـــيطة بالمنصـــورة- بثيابها وطرحتها السوداء، فى وسط المنور المجاور لباب الشقة، وأمامها وعاء نحاسى ضخم يعلو موقد الجاز، وبملعقـــة خشـــبية ضخمة تستمد حركتها من الذراع السمراء القوية الممسكة بها تستمر الحركة الدائرية فى قوام الزبدة الأصفر الكثيف، تطفو على سطحه طبقة لها قوام أخف قليلا، كأنها رغوات ثخينة لها

لــون كــريمى فاتح، تكشطه العجوز بملعقتها الضخمة، وتضعه فى عبوات بلاستيكية صغيرة، تتحول، بعد أن تبرد، إلى "المورتة" التى ستأكلها حنين، باستمتاع طفولي، فى الأيام اللاحقة.

المــائدة المعــتادة للإفطار، كأنها ذلك الطقس اليومى الطفولى البعيد.. بجوارها تجلس عمتها، لكنها هى التى ستحكى لها هذه المرة تفاصــيل أعــوام طويلة من الغربة واليتم، بلا أم، ولا أب، باستثناء زياراته المتقطعة.

حدثــتها عــن المدرســة الداخلية التى عاشت بها طفولتها فى باريس، أشارت إلى الأطباق الموضوعة أمامها وقالت لعمتها إن هذا الفطور جعلها تتأخر فى تقبل الفطور الفرنسى لفترة، وضحكت وهى تقول إنها ادمنت بعد ذلك البطاطس "البيوريه" و"الباستا" و"التارت دى نوتيلا".

أخــبرتها عــن المدرسات الفرنسيات، وخاصة "مدام بياتريس"، وكــيف أنهــن ســاعدنها فى تجاوز شعورها بالغربة، وباليتم، وفى استعادة الثقة والإحساس بالأمان.

صــمتت قليلا وكأنها تستعيد شريط ذكريات طفولتها فى فرنسا ثم قالت:

– ده كان صعب جدا يا عمتي.

رســمت ناديــة ابتسامة مشجعة وهى تؤمن على ما تقوله لها "حنيــن" بهزات متتابعة من رأسها. فقد كانت تعرف، بالضبط، مدى صــعوبة حــياة كهذه. ولم تكن تشك للحظة فى أن تكون حنين أقل حساســية من أبيها، الذى تعرف هى كل شيء عن مشاعره ورؤيته

الحساســة للأمور، بفضل ذلك التوافق الروحى العجيب، الذى جعلها تشعر بما يشعر به، وتقرأ أفكاره منذ بدأت فى إدراك الأشياء حولها.

كمــا أنهــا تابعت، عبر رسائل ابنة أخيها وحكايات رامى بعد عودتــه مــن فرنســا في بعض الرحلات التى طالت عن المعتاد، تفاصــيل علاج حنين من التأتأة التى لازمتها فترة طويلة فى أواخر مراحل طفولتها.

حكــت حنيــن لعمتها مصاعب حياتها بنصف لسان فى مدرسة داخلية، لايمكن أن تجد فيها مكانا يحقق لها خلوة تبتعد فيها عن ذلك العــالم الذى سبب لها آلاما لم تعرف أسبابها الحقيقية، وجعلها تعيش بعــيدة عن أهلها فى عالم لا تنتمى له، لكنها مضطرة للتكيف معه، تحــارب عزلــتها بنصف لسان وعقل مشلول بسبب الضغط النفسى للــتأتأة الــتى أفقدتها القدرة على التعبير عن نفسها لفترة طويلة من حــياتها، إذ إن الكــلام الــذى كان أقرانها يثرثرون به ليلا ونهارا بالنسبة إليها كان جحيما لا يطاق.

امــتحانات الســنة الأخــيرة فــى المرحلة الابتدائية، ولم تكن تجــاوزت العشــر سنوات، ظلت علامة فارقة فى حياتها: كانت قد ثرثــرت قلــيلا مــع "سيلفي"، رفيقة غرفتها، القادمة من "جرينوبل" (Grenoble) لــتدرس فى العاصمة الفرنسية بعد طلاق والديها. حكــت سيلفى لحنين، فى تلك الليلة، ملابسات علاقة أبيها الجزائرى وأمهــا الفرنسية. جمعت بينهما علاقة متناقضة شعارها الحب بينما يندس فى أعماقها كراهية دفينة ولدها الغضب الكامن فى أعماق أبيها بمــا فعلــه الفرنسيون بأهل وطنه. ولم يستطع أن يغفر لزوجته قط

- رغم خطابه الليبرالي - انتماءها للمحتل الفرنسي بينما يعيش هو في أحضانه كواحد من أهله!

خلافات الرأي، تلك، تحولت تدريجيا إلى مشادات عنيفة، ما إن تخبو حتى يعاود الأب افتعال أخرى يلقنها فيها دروسا عن الطريقة المثلى للحياة، يشحنها بالغضب العميق المتراكم في قلبه، محاولا تكدير روحها بخلق الإحساس بالذنب تجاهه وتجاه ابنتهما، مدفوعا بنوازع انتقامية لا شعورية، حولت حياة الأم إلى جحيم أتلف أعصابها تدريجيا، مما ألزمها بالحياة لفترة طويلة من حياتها- بعد الطلاق- في إحدى المصحات الفرنسية. وقرر الأب أن يلحق ابنته بهذه المدرسة ليبعدها عن تلك الأجواء الصاخبة.

لم تعرف حنين متى انتهت ذاكرتها من استحضار مشاهد هذه العلاقة التي حكتها لها سيلفي طويلا، ومتى تسللت صورة أمها من تحت الوسادة لتشتبك بالصورة التي يتشبث بها خيالها، قبل ذلك اليوم المشئوم الذي أعلن فيه والدها أن أمها ماتت في المستشفي.

كما أنها لم تكن متأكدة مما إذا كانت مستغرقة في نومها تتوهم، أم أن روحها تسحب منها فعلا. لكن ضيق تنفسها الملح جعلها تصرخ بوهن وقد تسلل إلى أطرافها الباردة شعور بالخدر والتنميل، سرعان ما بدأ في الانتقال من قدميها إلى ساقيها. وبعد لحظات كانت سيلفي قد استدعت المشرفة المسئولة والطبيبة، بينما حنين ترتجف بشدة، لا تقوى على التحكم في جسدها. تشاهد شبح الموت يطوف حولها، فيتشنج جسدها وتصرخ حين تكتشف فقدانها للقدرة على الكلام. وعندما استطاعت أن تستعيد عافيتها بعد ثلاثة أيام، بفضل

العـــلاج والعـــناية المركزة، كانت قد فقدت القدرة على النطق بشكل سليم.

اســـتطاعت ناديـــة أن تربط سريعا بين ما تحكيه لها ابنة أخيها وبيـــن ما تعرفه هى من رامي: فقد استغرق علاجها عامين كاملين كـــان رامى يقضى أغلب الوقت خلالهما فى باريس قريبا من حنين. فقط يعود لتدبير نفقات العلاج والإقامة ثم يعود سريعا. واضطر إلى بـــيع شـــقة الإســـكندرية الـــتى كان والده قد اشتراها له قبل اختفاء كريســـتين بعام واحد، خاصة وأنه استنفد كل وسائل الاستدانة، ولم يعد إلا بعد أن أعلنت له الطبيبة المعالجة شفاء حنين، ودور وجوده بجوارها فى سرعة شفائها.

حكـــت حنيـــن لعمـــتها عن سعادتها برحلات أبيها إلى فرنسا: تجوالهمـــا فـــى "الشـــانزلزيه"، وزيارة "اللوفر" يوميا لمدة أسبوع، رحلات "اليورو ديزني"، وحفلات السينما أيام الآحاد. وقضاء يومي السـبت والأحـد بعيدا عن المدرسة حيث كانت تنتظر حكايات أبيها المسترسلة باللغة العربية حتى يخطفها النوم.

ثرثـرت كثـيرا عـن تفاصيل حياتها فى باريس، وخاصة بعد انـتقالها للإقامـــة مع عائلة أحمد حسين- صديق طفولتنا- وزوجته الفرنسية وابنته ناتالى التى أصبحت الصديقة المقربة لحنين حتى هذه اللحظـــة. وأعلنـــت حنين لعمتها عن ارتفاع معنوياتها بعد حصولها علـــى مـــنحة للحصـــول على الماجستير والدكتوراه فى الدراسات الاجتماعـــية من السوربون. لكن الشيء الوحيد الذى ترددت فى أن تحكيه كان علاقتها بنفس الشخص الذى تردد اسمه فى وعيها بشيء من الغضب المشوب بحب عميق!

ألعاب السرعة!

عـــندما كنـــت أستيقظ على صوت دقات الأجراس القادمة من صوب الكنيسة القريبة، تتداخل الدقات ذات الرنين المعدنى المتتابعة بصورة كريستين- أمك الله يرحمها- وعماد.

هكـــذا بدأت نادية تحكى لابنة أخيها. وتغمرنـى السعادة لذكرها اســمي- رغـــم أنها لم تترحم علي- فأستعيد فورا ذلك الزمن البعيد الـــذى لا أستطيع العودة إليه، ربما لأن ما يكفينى الآن هو الاستماع إلـــى صـــوتها وهى تحكي، وتطلق وشيشها الداخلى للمرة الأولي. تحكـــى فيكشـــف حكـــيها عـــن حساسيتها ورهافتها- وربما أن هذا تصـــورى الذى يوهمنى إياه حبى لها- دون أن تعرف أننى أقرأ ما تحكيه وهو يدور فى ذهنها، ويبدو لى أجمل.

.. وبمجرد أن أفتح عينى أدرك أن رامى قد استيقظ هو أيضا، ولكـــنه، وكمـــا كـــل أيـــام الجمعة والأحد، لا يستطيع أن يبدأ يومه باصطحابهما. سيعيد الغطاء فوق رأسه، ويكور نفسه مثل كائن دقيق داخـــل قوقعة بحرية ملقاة على رمال الشاطيء، محتفظا لنفسه، ولى طـــبعا، بذلـــك الصخب الداخلى الذى لم يكن بإمكان أحد أن يسمعه ســـواي. كنـــت أستمع إلى أغلب ما يدور بذهنه، وأشعر بمشاعره.

أحيانا أستيقظ مندهشة من دموعي التى تغافلنى أثناء النوم. أحاول أن أتذكر الحلم الذى أبكاني، فأدرك أنه هو الذى كان يحلم.

بعـــد زواجى بفترة قصيرة ظن زوجى أننى ممسوسة. وقال لى موضـــحا إنـــنى أضـــحك كثيرا أثناء النوم. وفى أحيان أخرى أبكى طويـــلا. لكنه لم يكن يعرف أنه لا حيلة لى فى ذلك، إذ كانت أحلام رامى العبثية إلى حد الكوميديا، أو كوابيسه المزعجة هى السبب فى ذلك.

مـــرة واحدة فقط جاءنى رامى ضاحكا ليحكى لى تفاصيل الحلم الذى حلمت به ليلا وأنا أركض خائفة من بواب العمارة العجوز وهو يمسك بعصا غليظة، ويتهمنى بأننى كسرت "القلة" التى يشرب منها. ارتبكـــت للحظـــة، قـــبل أن أشاركه الضحك، وأنا مندهشة من أنه استطاع أن يرى حلما من أحلامي. ولكنه توقف عن متابعة أحلامى بعـــد ذلـــك حيث تضخمت روحه بالحزن الذى تسرب إليّ بالتدريج ومـــلأ ليلى بالكوابيس التى كانت تلاحقنى لليال متتابعة حتى أسرع إلى أمي– جدتك– لأحكى لها، فتتأملنى واجمة قبل أن توصينى بألا أحكـــى الحلم لأى أحد وبعدها تردد "اللهم اجعله خير" ثم تشرع فى حكايتها المكررة عن ولادتنا التى عذبتها طويلا، ولساعات تجاوزت ١٨ ساعة حتى اضطرت الداية للاستنجاد بالمستشفي: نقلونى هناك، ورامى راسه مش عايزة تخرج، وجيتى انت وراه بنص ساعة.

المكـــان الوحـــيد الـــذى لم يكن مسموحا له بمرافقتهما فيه هو الكنيسة. وكان مشغولا بالتفكير فى الطريقة التى يستطيع بها تجاوز هـــذا القيد. يعرف أننى أستمع إلى وشيشه، لكنه لم يعد يمتلك القدرة

علـــى الـــتراجع عن تقليب الأمر فى خياله مصحوبا بصوت دقات الكنيســـة، والتراتـــيل التى كثيرا ما استرق السمع إليها عندما نذهب ســـويا إلى "خالتى درية" فى شارع "السكة القديمة" حيث تطل الشرفة الجانبية للبناية القديمة، ذات السقف العالي، على فناء الكنيسة. ويقف مشدوها يراقب الصبية والبنات- أيام الأحد- فى شغف.

كـــان شغوفا بفكرة التحول إلى المسيحية، ولم تقنعه كثيرا آراء جـــدك الـــذى بوغـــت برغبته، وحاول أن يثنيه عن أفكاره بطريقته الهادئـــة، دون جـــدوى. وظـــل طويـــلا يعيش فى حلمه بأن يصبح مســـيحيا، ويتمنى كل ليلة أن يحلم بالمسيح، كما يراه بعينى طفولته. الإله الجميل ذا الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين

وكما ملأت أفكاره كل حياتي. كانت كريستين- أمك- هى التى تملأ عقله وروحه وتفيض نفسه بها إليّ.. إلى ذهنى وروحى.

تقريـــبا.. لم يتسع خياله لأى امرأة أخرى سوى مرتين: الأولى عندما تعلق بحب "أبلة سوزان" مدرسة الرسم فى المدرسة الإعدادي: لـــم يكن مشغولا بالرسم على الإطلاق، لا يستحوذ على خياله سوى شخصـــيات الروايات التى يلتهمها يوميا، وخاصة "فهمى" فى ثلاثية محفوظ، و"أوليفر تويست" "لديكنز" و"دارتانيان" فارسه النموذجى بين فرسان دوماس، و"أزميرالدا" فيكتور هيجو: نموذج الأنثى التى يبحث عنها فى كل علاقاته. يتقمص شخصياتهم فى خياله ويجمعهم معا، أو يتســـلح بـــرداء دارتانيان لينقذ أزميرالدا من الضابط الفرنسى الذى يكـــرهه. أو يـــترك لمشـــاعره العـــنان لحب "مريم" متأملا حياتها المأساوية بعد رحيله باعتباره فهمى ابن السيد "أحمد عبدالجواد".

لكـــن هـــذا العـــالم، بكل تفاصيله، سقط فجأة من سقف ذاكرته ليفســـح الطـــريق لصورة "أبلة سوزان" شبيهة "ميرفت أمين"، ولكن بعينيـــن واســـعتين عميقتين، وملأ من أجلها صفحات كراسة الرسم بخطوطه السخيفة ورسومه المشوهة.

أمـــا الثانـــية، فهي "ماريا" اليونانية التي تعلق بها جدا، وكانت بديلا طبيعيا لأمك في فترة انفصل خلالها كل منهما عن الآخر، بعد موت عماد الدرامي.

نعم.. كان موتي دراميا يا نادية. معزولا ووحيدا. مجهدا بتعب القلب الذي أنهكه المرض، وغارقا في الحمى والخوف المضني من المجهـــول، متوسلا ليسوع بالغفران باسم الأب والابن، وبأبينا الذي فـــي السماوات، وبحق كرامات الشهداء والقديسين. غير أن أحدا لم يشـــفع لي يا نادية. وغبت منبوحا بالألم إلى زمن آخر، يشقيني أنني لا أســـتطيع أن أحكي لك عنه، ومازلت بعد عودتي الدرامية هذه لا يمكنـــني أن أحقـــق تحديا يماثل ما فعله رامي وكريستين.. في ذلك الزمن الجميل..

نلعـــب الحجلة منذ البلاطات الأولى لسور الكورنيش المحاذي لمبـــنى المحافظة، وحتى مبنى المكتبة العامة المغلقة دائما، والمواجه لـــفـــيلا الشناوي الأنيقة بتصميمها الذي لا يخلو من فخامة، والتي نعـــبر إليها في الجهة الأخرى من شارع البحر على حدود المختلط. نـــتأمل التماثـــيل الحجـــرية البيضاء تجسد فتيات لهن ملامح جمال إغـــريقي قديـــم، والموضـــوعة بجوار الباب الرئيسي الذي يتوسط المدخـــل الـــزجاجي الملـــون بـــألوان صارخة يطغى عليها الأحمر

والأزرق. نتسلل بخيالنا إلى ما بعد الباب نحاول اختلاق السيناريو المناسب للحياة داخل الفيلا التى ارتبطت فى خيالنا- أنا ورامى وكريستين- بالقصور المسحورة، غامضة وممتلئة بالأسرار التى خلفها البشر: عائلة الشناوى التى لم نعد نسمع عنها كثيرا الآن، بينما بقيت آثارهم دلائل أرستقراطية قديمة: قصر محمود الشناوى المهيب بقبابه المميزة وطرازه المعمارى الأوروبي، والذى تحول إلى مبنى مديرية الأمن القديمة على حدود كفر البدماص مطلا على الميدان القريب من جامع النصر. وقصر الشناوى الكبير الذى تحجبه الأشجار والسور المحيط به والمبانى حيث يقع قريبا من تقاطع شارع البحر مع شارع جيهان، والذى ارتبط فى أيام مجده بأسماء الإقطاعيين، وبالحفلات التى أقيمت به بعضها بحضور أم كلثوم وعبدالوهاب، قبل أن يصبح بدوره الآن شبه مهجور.

نصعد بعدها على المشاية العلوية التى تبدأ من أمام السور الخلفى لمدرسة "المنصورة الثانوية بنات"، وتعلو تدريجيا فوق كوبرى القطار الذى يصل بين طلخا والمنصورة، ثم نهبط إلى الجهة الأخرى من المشاية عند مدخل "الهابى لاند" نأكل "الآيس كريم" قبل أن نعود مرة أخرى إلى موقعنا الأثير فى توريل.

تلك كانت الأيام الخوالى يا نادية. سنجد الجميع فى انتظارنا: "جلال" الأسمر ذا الجسد المدكوك، و"على" الذى ينتصر لى دائما على كل من يطلق علىّ لقب "أبو عضمة زرقا" و"جولى" النصف ألمانية، بشعرها الطويل الأشقر وجسدها النحيل وعينيها الزرقاوين، والتى ينتظر جلال لأجلها لعبة المنديل متحرقا، ويختار الفريق

المضـــاد لفريقها بحيث يقف فى مواجهتها متخذا من المنديل ذريعة للاقـــتراب مـــنها هائما، يحيطها بذراعيه دون أن يلمسها ليمنعها من الـــركض بالمـــنديل إذا اختطفـــته. لكنه غالبا ما يفقد تركيزه بتأثير اقـــترابه مـــنها أكـــثر ممـــا ينبغى، وهو ما يعطيها الفرصة لتهرب بالمـــنديل وســـط تشجيعنا الحماسى لها، بينما تقف "بسنت" بالمنديل بيـــنهما، وهـــى تكاد تحترق من الغيرة والكمد لتعمد جلال المستمر تجاهلهـــا بينما أنتظر أنا ورامى ألعاب السرعة: "الاستغماية الجديدة" أو "الملك" لنعلن للجميع أننا الأسرع بلا منافسة.

ولعلى كنت الأسرع يا نادية بلا منازع. رحلت وحدي، مذبوحا بـــالألم. مشفوعا بالدعاء والنذر والصلوات وبصيام الميلاد والقيامة. دون جـــدوى. والآن لست سوى حالة شبحية، لايرانى أحد، ولا أثر لكريســـتين أو رامى أيضا. وأمامى تقف حنين ابنتهما علامة فارقة علـــى عبث الحياة التى تعيشونها يا نادية.. بينما تحكين لها حتى ما تكاد ذاكرتى تهمله تحت ضغط الألم.

الطـين الأخير..

قاطعت حنين عمتها لتسألها إذا ما كانت ترغب فى شرب شاي، وهــى تــتجه إلى المطبخ لإعداد قهوتها. تسهب عمتها فى التفاصيل بينما يأكلها الفضول لتعرف ما حدث لأمها ولأبيها.

- هو إحنا هنشوف بابا إمته يا عمتي؟

رفعت حنين صوتها بالسؤال وهى تقف بالمطبخ.

- مش عارفة يا حنين لسه. يمكن آخر الأسبوع.

أحســت بالتوتر والقلق. وانتبهت إلى أن جزءا من عقلها يردد أغنــية "بول آنكا" دون وعى منها، بإلحاح، كعادتها حين تظل تردد الأغنية التى تسمعها للمرة الأولى فى أى صباح.

Every night my papa would take me
and Tuck me in my bed
Kiss me on my head
After all the prayers were said

أحســت بأنهــا تفــتقد أباها بشدة. لكنها فى نفس الوقت كانت مدفوعة بالصبر على ثرثرة عمتها بفضول اكتشاف شيء ما لم تكن تعــرفه. ملامح خاصة بأمها. سر غامض عن أبيها. حكاية عن أهل أمها الذين لا تعرف عنهم شيئا.

I could tell
That mama wasn't well
Papa knew and deep down so did she
So did she
When she died
My papa broke down and cried
All he said was:God,why not take
me?

خرجت حنين من المطبخ وهى تحمل صينية وضعت عليها قدح القهوة وكوب الشاي. سألت عمتها وهى تضع الصينية على المنضدة الصغيرة أمام عمتها:

- إنت عمرك ما خرجت معاهم يا عمتي؟
- لأ طبعا.. خرجت معاهم.. بس مش كتير.

حكت نادية لـــحنين عن المرات القليلة التى خرجت فيها معنا: زيارتنا "لدار ابن لقمان" التى ذهبنا إليها مبهورين وفخورين بالتاريخ المــنقوش أعلـــى الجـــدار المواجه للمبنى القديم البسيط، وهو نفس التاريخ الذى أسر فيه "لويس التاسع" بعد معركة "فارسكور"، وعرفنا مــن الموظف الذى اصطحبنا فى جولتنا بمتحف اللوحات التى تجسد المعـــركة أنهـــا كانـــت تدور بعد سنوات قليلة من بناء المدينة التى عرفـــت باســـم "جزيرة الورد". بناها "الملك الكامل" لتكون استراحة عســـكرية لمواجهـــة الجيش الأيوبى للحملة فى عام١٢١٩. وخرجنا محبطيـــن من فرط بساطة المكان، وسذاجة الحارس الذى رافقنا إلى

غـرفة صغيرة بها نافذة تطل على "كوبرى طلخا" وأشار إلى مكتبة صـغيرة ومقعد خشبى مطليين باللون الأسود أنهما كانا يخصان ابن لقمان صاحب الدار!

قالـت ناديـة: كانـت لهم ألعاب سخيفة، بالذات عماد ورامي. تصـورى انهـم كـانوا بيتسابقوا يروحوا عند مزلقان القطر عشان يـناموا تحته وهو معدي. وبعدين أنا ما كنتش صاحبتهم قوي. يعنى أنـا ما كنتش زى أبوكي. دايما كنت با حس إن فيه حاجة بتفصلنى عنهم.. مش بارتاح لهم.. يعنى أنا كنت متخلفة شوية وأنا صغيرة.. وكمـان كريسـتين وهـى صغيرة كانت شبه الولاد.. وطول النهار قاعدة معاهم فى الشارع.

وأضـافت نادية أنها رغم ذلك لم تمتنع عن صحبتنا كثيرا إلى "الهـابى لاند" أو لشرب الكوكتيل عند أحمد أمين فى شارع العباسى أو "الكاساتا" فى كازينو الشجرة أو "مانيرفا".

ثـم ضـكت وهـى تقول: لو سمعتنى نسرين وأنا باقول على الأماكن دى هتقول علىّ دقة قديمة. دلوقت فيه أماكن جديدة.. إيشى "فونـدي" و"كنتاكي" و"جرين كورنر" و"علاء الدين" وكل يوم مطعم جديـد، أو "كافـيه" ده غير نادى جزيرة الورد اللى قاعده فيه طول الليل والنهار.

وصرخت نادية كأنها تذكرت شيئا مهما: أيوه.. افتكرت.. كنت باحب أروح معاهم جنينة الحيوانات.

طـبعا يا نادية.. وكنت تستمتعين بكل الطقوس بدءا من شراء التفاحات الخضراء الصغيرة المثبتة بالعصى النحيلة والتى تعلو كلاً

مــنها تلك الطبقة الحمراء من الحلوى تملأ الصندوق الصغير الذى يحمله "عم على" على كتفه. تتسللين من بيننا لتذهبى ركضا إلى بيت الطـــاووس.. مكـــانك الأثير.. حيث تستمرين طويلا تتأملين الطائر البديع بانبهار.

Every time I kiss my children
Papa's words ring true
Your children live through you
They'll grow and leave you too

وأحســـت ناديـــة بتملل حنين التى اغرورقت عيناها وهى تردد الأغنـــية فـــى ذهنها، فحكت لها هذه الواقعة التى غابت عن ذاكرة الجمـــيع إلا ناديـــة فـــيما يـــبدو: قالـــت لها إنها اكتشفت غيابى أنا وكريستين فى واحدة من زياراتنا لحديقة الحيوان، وإنها ورامى بحثا عـــنا طويـــلا فـــى أرجاء الحديقة حتى وجدانا فى بيت الطيور نقف متقابلين وقد تلاصقت شفتانا.

كنا صغارا يا نادية، وما حدث كان مجرد نزوة صبيانية أدركنا بعدها وجود حائل كبير يفصل بيننا، فقد كان تفاهم رامى وكريستين واضـــحا للجمـــيع. كانـــت هناك لغة خاصة يستخدمان فيها نظرات العـــيون، ولكنى كنت أفهمها بحكم قربى منهما، ولم يكن ذلك يعنينى فـــى شيء لأنك أنت التى تمنيت أن أقف أمامها بين كل تلك الطيور محاطيـــن بالزقـــزقات المـــنغمة والهديـــل، أتأمل عينيك السوداوين العميقتين.

لكــن شــيئا من هذا لم يحدث لسبب بسيط هو أننى تركت كل شيء متوجها إلى مصيرى المحتوم. أمسكت يد أمى أتحسسها برفق. تلاشــت صــورتك من خيالى، وكانت تلك البرودة القادمة من عمق الروح تدهمنى بسرعة. أمسكت كف أمى بقوة. فتحت عينى لأحتفظ بصــورة وجهها. ابتسمت لها مشجعا ومطمئنا إياها بأننى ذاهب إلى جــنة المســيح.. وبدأ شعورى بالتلاشي.. أغوص فى دوامة الوعى التى تسحبنى بعيدا خارج حدود الزمن.

ألغاز الروح..

مزقــنى بكاؤك الصامت يا نادية، بينما تقودين سيارتك، منطلقة من شارع طلعت حرب، فى طريقك إلى "مستشفى الكلى" على امتداد ســور الجامعــة. لم ينقطع بكاؤك سوى للحظات أثناء مرورك من مدخــل المستشفى الأنيق، وسرعان ما أجهشت بالبكاء مرة أخري، لاتجدى المناديل الورقية التى كانت تتحرك بالتتابع بين مآقيك، شيئا.

أنقذتــك المكالمــة الهاتفــية التى استدعوك بها لطارئ يستلزم دخولــك غــرفة العمليات. ربما أننى وحدى الذى يعرف ما يجيش بصــدرك. الصمت المفزع الذى تشعرين به الآن بعد تلك السنوات الطويلــة من الصخب الداخلي، الذى تصنعه أفكاره، ليترك لك بدلاً منها حنيناً.. فماذا ستفعلين؟

* * *

أمسكت حنين بنسخة من مجلة 'Voici' كانت قد أخرجتها من حقيبتها. قلبت صفحاتها وهى مشتتة الذهن. توقفت للحظة أمام إحدى الصفحات ضمت مجموعة صور لاثنين من نجوم المجتمع الفرنسي: "جــان باســكال" و"إلــودي"، يفترشان منشفتين على رمال الشاطئ

بـــهاواي. ترتدى إلودى "مايوه" بيكينى أحمر مزركشاً بورود بيضاء صـــغيرة، بينما جان باسكال يرتدى "شورت" كحليا. الصفحة المقابلة تضـــمنت صـــورة واحدة ضمتهما معا وهما يتعانقان فى وسط مياه البحر. قلبت الصفحات مرة أخري. توقفت أمام صورة لسيدة ضخمة تشـــى ملامحها بأنها فى أواخر الأربعينات. شقراء. تقف عارية. لا تـــرتدى ســـوى النصف السفلى من مايوه "بكينى" أسود، تستعرض جســـدا استعاد رشاقته بعد ترهل طويل. ترفع ذراعيها عاليا لتعطى الفرصـــة للرجل الخمسينى ذى الشعر الفضى الواقف خلفها لتوزيع الكريم على امتداد ظهرها، قبل حمام شمس على ظهر أحد اليخوت.

الصفحة التالية ضمت صورا "لـــبريتنى سبيرز" مع عائلتها فى أثـــناء إجـــازة بـــــلوس أنجلوس، ترتدى ثوبا أبيض شفافا لا يخفى النصف العلوى من مايوه "بيكينى" أزرق و"شورت جينز" قصير.

توقفت أمام صورة "كاميرون دياز". تأملت مجرى النهر الضيق بين نهديها. قارنت حنين بينهما وبين نهديها لتعيد التأكيد لنفسها على ضـــآلة حجـــم نهديها. استعادت للحظة الإحساس بكفى "ديفيد" وهما تعبـــثان بصـــدرها. أغلقـــت المجلة. دخلت الغرفة. التقطت الحقيبة الســـوداء التى تخص جهاز الكمبيوتر الشخصى الذى أهداها "ديفيد" إيـــاه. أخرجـــت الجهاز من الحقيبة، ووضعته أعلى المنضدة، التى تشبه مكتبا صغيرا، المستقرة بجوار الحائط المجاور للباب وأوصلت القـــابس بالكهـــرباء. فتحت بريدها الإلكتروني. وجدت رسالة واحدة تحمل اسمه، فتحتها فى لهفة، ولم يكن مضمونها سوى كلمة واحدة: Salut. انتابها شعور خانق بالضيق. هل يحاول اختبار رد فعلها

عقب المشادة التى سبقت سفرها إلى مصر بيومين؟ سألت نفسها قبل أن تعيد إرسال نفس الرسالة إليه بلا تعليق وأغلقت الجهاز بسرعة.

أشـــعلت سيجارة بعد أن خرجت إلى الصالة. التقطت "الريموت كونـــترول" مـــن علـــى الأريكة بجوارها. ضغطت على زر تشغيل التليفزيون. كانت القناة الأولى تعرض فيلما قديما بالأبيض والأسود، وشـــاهدت اسم الفيلم على ركن أسفل الشاشة "عائلة زيزي". فتابعته بشغف طفولي، ولم تكن قد شاهدته قبل ذلك.

عـــندما انتهى الفيلم لم تجد ما تفعله. تحركت باتجاه الصالون. تأملـــت الأســـطوانات والأشـــرطة المحيطة بجهاز الـــ(Hi Fi) وابتهجـــت عـــندما وقعـــت عيناها على أسطوانة لفريقEnigma. وضـــعت الأســـطوانة فـــى الجهاز، وسرعان ما فاضت الموسيقى الغامضـــة والمستدعية لأساطير الروح أرجاء المكان، دون أن تفقد الإيقاع المميز على عكس الكثير من موسيقى الـــNew opera. عادت إلى غرفة النوم مرة أخرى. التقطت من حقيبتها كتابا لبودلير وهى تتجه بتثاقل صوب الفراش.

وقـــبل أن تغفـــو ظلـــت تقرأ.. توقفت عند فقرة بعينها أعادت قـــراءتها مرتيـــن متعاقبتين "يقول المغنون إن السعادة تسمو بالروح وترهف القلب. كانت الأغنية على حق فى ذلك المساء، بالنسبة لي. فعائلـــة العـــيون هـــذه لم تجعل قلبى رقيقا وحسب، بل إننى شعرت بـــالخجل إلى حد ما من كؤوسنا ودوارقنا التى تفوق ما نشعر به من ظمـــأ. حولـــت نظرى إلى عينيك، يا حبى العزيز، لكى أقرأ فيهما فكـــري. غرقت فى عينيك رائعتى الجمال والملهمتين بالقمر فإذا بك

تقوليـــن لــــي: (هــؤلاء الـــناس لا يمكننى تحملهم بعيونهم المفتوحة كـــأبواب العربات! ألا يمكنك أن ترجو من رئيس الخدم إبعادهم من هنا؟) ما أصعب التفاهم يا ملاكى العزيز، وما أصعب تواصل الفكر حتى بين الأحباب!..."

وغالبها النعاس، فاستسلمت للنوم، وتركتنى لألحق بعيدا صوب نادية وروحها التى كنت أسمعها تنادينى من بعيد.

* * *

فتحت عينيها. وكلما استعادت وعيها أصبح صوت جرس الباب أعلـــى صـــوتا. وضعت كتاب "سأم باريس" على المنضدة بجوارها وهـــى تنهض من الفراش. فتحت الباب لتفاجأ بابنة عمتها نسرين.. وجـــه طفولى مبتسم. شعر أسود طويل يحيط بوجه كامل الاستدارة. عيـــنان عسليتان واسعتان تتوهجان بالحيوية والذكاء. بدا الشبه بين هذه الفتاة وعمتها نادية كبيرا. احتضنتها بقوة.

لـــم تكـــن أى منهما قد رأت الأخرى قبل هذه اللحظة، إلا عبر بعض الصور التى تبادلاها بالبريد. لكن علاقة وثيقة بدأت بينهما قبل عاميـــن على شاشات أجهزة الكمبيوتر والبريد الإلكتروني، وهو ما جعـــل لقاءهمـــا حميما كصديقتى طفولة، رغم السنوات الخمس التى تمثل فارق العمر بينهما.

أخـــبرتها نسرين أن أمها ستتأخر فى المستشفي، وأنها ستقضى اللـــيلة معهـــا. ثرثرتا طويلا، حول باريس والمنصورة، وأحوال كل

منهما قبل أن تقترح نسرين على ابنة خالها الخروج للتنزه فى شوارع المنصورة.

أبدت حنين دهشتها من الزحام الشديد، وتوسع المدينة بشكل كبير، الكورنيش الجديد على امتداد المشاية السفلية التى تبدأ من خلف "مسرح أم كلثوم" الملحق بقصر الثقافة، وحتى "نادى جزيرة الورد".. مصابيح الإضاءة ذات الطابع الإنجليزى الكلاسيكى المعلقة على أعمدة نحاسية مطلية باللون الأسود أشبه بالموجودة فى شوارع لندن القديمة كما تصورها الأفلام. العمارات الحديثة العالية المتراصة على امتداد المشاية وحتى الجامعة.

قالت نسرين إن المنطقة سحبت البساط من حى توريل كحى أرستقراطى قديم، واجتذبت كل طبقات الأثرياء الجدد الذين كونوا ثرواتهم فى السبعينات والثمانينات من الانفتاح والتجارة فى كل شيء.

من بين تجمع المطاعم الأمريكية المواجه لمدخل الجامعة الرئيسى اختارت حنين مطعم "تكا". حكت نسرين لابنة خالها عن حياتها فى المنصورة، ودخولها الجامعة هذا العام لدراسة طب الأسنان.

– ما قدرتش أجيب مجموع كلية طب زى ماما ما كانت عاوزه. حاولت أقنعها إنى أسافر فرنسا أدرس هناك بس طبعا ما وافقتشي.

– خسارة.. ياريتك جيتى عشتى معايا.. على الأقل كنت كسرت إحساسى بالغربة هناك شوية.

صـــمتا للحظـــات كانت حنين تتأمل خلالها المكان ورواده من الشباب والعائلات.

– عدد المحجبات زايد شوية.. ولا أنا بيتهيألي؟!

– لأ عندك حق.. السنين اللى فاتت كانوا أكتر شوية كمان عن كـــده.. دلوقت فيه توازن شوية. فيه بنات كتير بيلبسوا على الموضة وبنطلونات ضيقة.

كانت حنين تشعر بدفـــء وجودها مع ابنة عمتها فى المنصورة، ممـــا فتح شهيتها للثرثرة. حكت لها عن حياتها فى باريس، دراستها بالســـوربون. اهـــتماماتها. سفرياتها إلى أوروبا. لكنها لم تتورط فى الإشـــارة إلـــى ديفيد. كبحت رغبتها فى الحكى عنه، واسترسلت فى وصـــف إحساســـها اللانهـــائى بعـــدم الأمان، رغم روابط العلاقات والصـــلات المســـتمرة بـــبعض مدرســـاتها منذ كانت فى المدرسة، وصـــداقات الطفولة، وزياراتها الأسبوعية لصديقتها ناتالى أو أختها. تماما كما اعتبرتها الأم: سيسيليا وزوجها أحمد حسين.

وقـــبل أن تودعهـــا أسفل باب العمارة.. مدت نسرين يدها إلى حنين تعطيها مجموعة من الأوراق فى مظروف أصفر كبير، كانت حنيـــن تظـــن أنـــه يضم أوراقا تخص نسرين التى قالت لها قبل أن تختفي:

– ماما عاوزاكى تقرى الورق ده قبل ما تشوفك!

القسم الثانى

- ١ -

استيقظت مفزوعا على صوت دوى طلقات رصاص بدت وكأنها تطلق من أعلى العمارة، متتابعة، وبإلحاح يثير التوتر إلى حد الرعب. تتوقف للحظات قبل أن يعاود الدوى انهياله بنفس الإلحاح، لكن صوته هذه المرة بدا أقل حدة وكأنه قادم من أعلى إحدى العمارات على الجهة الأخرى من الميدان، أو كأنه رجع الصدى لصوت الطلقات الآلية المقبضة.

خرجت إلى الصالة. وجدت أبي، مرتديا جلبابه الأبيض، واقفا في وسط الصالة تكتسى ملامح وجهه بالفزع يحاول أن يخفيه عنا، بينما ارتمت نادية فى حضن أمى التى كانت تقف أمام غرفة نومها وأبي، تمتزج بملامح وجهها بقايا آثار النوم مع الدهشة والذعر. كانت عقارب الساعة على الحائط تشير إلى أنها تجاوزت الثالثة صباحا. عدت إلى غرفة نومى مرة أخرى، ولحق بى أبي، ننظر عبر خصاص النافذة الخشبى لعلنا نرى أو نفهم شيئا. لكن دون جدوى. لم تكن هناك أية أصوات أخري. فقط، طلقات الرصاص تدوى فى "ميدان فريد المصرى" كسابقة هى الأولى من نوعها، ولعلها الأخيرة.

الهلـــع الـــذى أصـــابنا جميعا تحول بمرور الوقت إلى إحساس بالألفـــة مع صوت طلقات رصاص البنادق الآلية. لكن الفضول كان قاتلا: من هؤلاء؟ هل هى مطاردة بين أعضاء الجماعات الإسلامية وقـــوات الأمن؟ ولماذا لا نسمع لأى منهم صوتا؟ ومتى صعدوا إلى سطح المنزل؟ وكيف؟

تذكرت أننى فى مساء اليوم السابق كنت قد شاهدت دبابتين أمام مبـــنى مديرية الأمن القديمة، تحيط بهما عشرات من سيارات قوات الأمـــن المركـــزى التى امتلأت بحشود الجنود. كنا جميعا نشعر أن هـــناك أحداثا غير طبيعية، نترقبها دون أن نملك القدرة على تحديد طبيعتها.

انقطـــع صـــوت الـــدوى المرعب فجأة مخليا الساحة لزقزقات العصـــافير التى تستهل بها توريل صباحاتها مع أول إشارات الفجر الـــذى تهـــب مع نسماته لمسات من اللون الرمادى يكسر بها عتمة الليل.. وتبدأ السماء رحلتها لاستعادة ألوانها المبهجة.. ككل صباح.

فتح أبى النافذة بحذر. لم يكن هناك أثر لأى شيء، أو أحد. كأن مجموعة من أشباح الفضاء هبطت لتحدث كل هذا الصخب المرعب، ثم عادت من حيث أتت دون أن تترك أثرا.

فى الصباح دبت الحياة فى توريل كعادتها كل يوم، كأن شيئا لم يحـــدث فـــى الليلة الماضية. فى طريقنا للجامعة، لم نتوجه إلى أول شارع طلعت حرب الذى يبدأ من عند المحافظة كالمعتاد، وإنما سرنا فـــى الاتجـــاه المعاكس نحاول أن نرى آثارا لما حدث خلال الليل. شـــاهدنا آثـــارا لـــبقع قاتمـــة من الدماء أعلى جدار العمارة المقابلة

لعمارتـــنا. ولاحظـــنا أن سيارة "عم سعد" "البيجو" البيضاء قد ثقبت أبوابها بفعل اختراقات الرصاصات المجهولة لها!

لا أذكر الآن على وجه الدقة إذا ما كان هذا الحادث قد وقع قبل يوميـــن من مقتل السادات فى حادث المنصة الشهير، أم أنه كان بعد ذلـــك. سألت بعض شهود الواقعة وأخبروني- بلا يقين- أنها أعقبت مقتله، ربما لأنهم ربطوا بين الحادث وتفاصيل مواجهة قوات الأمن لمخطـــط الجماعات، الذى تبينوا أن مقتل السادات كان أول خطوطه العريضـــة، وظهـــرت توابعـــه بعد عملية اقتحام مديرية الأمن فى أســـيوط، والتى أسفرت عن قتل مئة شخص، بعد يومين من حادث المنصة.

بعـــد مـــوت الســـادات الدرامى غابت الذقون من حولنا فجأة. ومكثت بدورى فى البيت أغلب الوقت أنا وزملائي- الإخوة- الذين كانوا على وشك أن يصبحوا منظمين. هل تحقق فعلا ما ظلوا يبثونه فـــى عقولـــنا علـــى مدار عامين كاملين؟! فى الخطب الأسبوعية، والندوات، ولقاءات الخلاء، وجعلنا نردد مثلهم، غاضبين أن الحاكمية لله وأن الطـــاغوت يعـــيش أيامه الأخيرة! هل كانوا يعرفون توقيت العملية فعلا؟ أم أنهم فوجئوا مثلنا بهذا المشهد الدرامي؟!

توقفـــت عـــن إلقاء الأسئلة، وامتنعت عن الذهاب إلى المسجد مكتفـــيا بالصلاة فى البيت، كنت أشعر أننى فى ختام هذا الفصل من حياتي.

منذ بدأت فكرة الخلاء وقد تسلل إلىّ هذا الشعور. تركت نفسى فـــى الـــبداية مستسلما لاستمتاعى بلعب كرة القدم، وبعض الألعاب

الرياضـــية الجماعـــية على اعتبار أن المسلم القوى خير وأحب عند الله. لكـــنى فوجئت لاحقا بفكرة العقاب والتى أسموها "التعزير" لمن يتخلف عن اتفاقات الجماعة أيا كانت. ولم تكن تلك العقابات تتجاوز تكـــرار تمرين الضغط لعشر مرات مثلا. ولكنى لم أرتح كثيرا لهذه المســألة: حـــق أمـــير الجماعة الكامل فى الطاعة، كنت "انعزاليا" بطبيعتي، وحتى فى العلاقات الاجتماعية وصداقاتي، مهما انخرطت فيها، فإننى أنسحب منها لأتسلل إلى عزلتي. لا أقبل توجيها ولا نقدا من أحد، لا من المدرسين، ولا من أبي، ولا من غيره. فى المدرسة كنـــت أواجـــه حالات العقاب الجماعى التى قد تلحق بالفصل لشغب الـــبعض، بالرفض، وبعناد، بدعوى أننى لن أتلقى عقابا عن أخطاء غـــيري. فـــإذا كان المدرس عنيدا، أدعى أننى مريض بالقلب، وأن ضربة العصا فيها خطر على حياتي!! لم ينجح أى من المدرسين فى ضـــربى حتى لو اضطروا لرفتى من المدرسة، كما حدث مرة، أمام عـــنادى الشديد فى الامتناع عن الاستسلام لضربة العصا التى تلقاها زملاء الفصل جميعا كأنها قدر!

ويبدو أن هذا هو الاختبار الأول الذى تجريه قيادات الجماعة- أيـــا كانت- لمعرفتها بخطورة الفردية على روح الجماعة. ولهذا لم أفهـــم إصرار الأمير على أن نقف جميعا فى صف واحد متجاورين بـــلا أى حركة لمدة نصف ساعة قبل أن نبدأ مباراة كرة القدم التى حضـــرنا لأجلهـــا إلى الخلاء فى مساحة الأراضى الخالية قريبا من "قولونجيل"، قبل أن تتحول كلها إلى مبان سكنية فى الوقت الراهن.

انصاع البعض بدون تفكير، بينما آثر آخرون السخرية الصامتة دون أن يجـرأوا على الاعتراض. أما أشرف فقد خرج من الصف وهـو يقـول لمسـاعد الأمير صاحب اللحية الخفيفة وملامح الوجه الآسـيوية، ورائحـة العـرق النفاذة، إنه سيجلس بعيدا حتى يبدأوا المباراة.

رسـم الأخـير ابتسـامته الصفراء وهو يؤكد لأشرف أن هذا سيعرضه للتعزير.

- ليه؟!
- لأن ده أمر من أمير الجماعة لازم كلنا نطيعه.
- بس أنا تعبان.
- فيه ناس كتير تعبانين بس مستحملين.. وانت ما شاء الله لسه شباب.
- إللى تعبان وقادر يقف هو حر ياسيدي.
- طاعة الأمير من طاعة أولى الأ...

وقاطعه أشرف بنبرات بدت أقرب إلى الصراخ:

- أمير إيه؟! وجماعة إيه؟ والأمير ده أحسن منى فى إيه؟!. أنا ما باطعشى غير ربنا.. ومش عاوز لا ألعب معاكم ولا أعرفكم، ولا عاوز أشوف حد منكم أصلا..

وأدار لنا ظهره منصرفا قبل أن ينهى آخر كلماته التى أصابتنى فى العمق. لكنى لم أتحرك، مراعاة لشعور الأمير الذى كنت أكن له المـودة، لدماثـته المفـرطة، على عكس مساعده صاحب الابتسامة

الصـــفراء الكـــريهة. لم أحبه أبدا، حتى وهو يرسم ملامح الخشوع المبالغ فيها وهو يصلي.

المهم أن ما فعله أشرف كان القشة التى أمسكت بها بقوة لأعود إلى معسكرى الذى أنتمى أنا وأشرف إليه.

أما دوى طلقات الرصاص الذى هز عرش صمت الليل المهيب فـــى توريـــل فقد كان ثانى الإشارات. وبمقتل السادات كان لابد من مواجهة السؤال. فإذا كان أتباع الجماعة وأنصارها الذين حاولوا أن يســـتقطبونا قـــد حققـــوا ما يريدون- إذا كان موت السادات هو ما أرادوه- فمـــا الـــذى حققته أنا لنفسي؟ ما الذى يعنيه لبس السروال الأبـــيض تحت جلباب، والامتناع عن مشاهدة التليفزيون لأنه حرام، والامتـــناع عن اصطحاب العائلة إلى المصيف لنفس السبب، ووضع الســـواك فـــى جيـــب القمـــيص، وإطـــلاق اللحية والتعطر بالمسك المعطـــوب ذى الرائحة الخانقة؟! بل وما الذى يعنيه الوقت المبذول فـــى قراءة فقه السنة والخطايا الكبرى أو تلبيس إبليس وفقه السيرة والاستماع إلى أشرطة الشيخ كشك وحضور الندوة الأسبوعية للشيخ يسري؟ و... و... إذا كانت نهاية هذا كله هو القتل؟!

عـــدت- غـــير آســـف- إلى شكسبير وسارتر وروايات نجيب محفـــوظ، على يقين من أننى ودعت مرحلة من حياتى لم تضف لى شيئا، خاصة وقد تيقنت أن شيئا من هذا لن يعيد عماد للحياة، كما أنه لن يعيد كريستين من حيث قررت أن تذهب:

بعـــد عودتـــنا من المقبرة سرنا أنا وهى صامتين. ودعتها عند بـــاب البيت بإشارة من رأسى وأشارت لى مودعة، بينما آثار البكاء على عينيها جعلت ملامح وجهها تشبه ملامح القديسات.

فرقنا موت عماد كل إلى طريق.. ذهبت أنا إلى المسجد، وهى إلى الدير، حيث عرفت بعد شهرين بقرارها المفاجئ بالرهبنة.

كـــان مـــوت عماد ثقيلا، وقاسيا، بدرجة لم تكن لنا القدرة على احـــتمالها. ســـألت الله طويـــلا أن يخفـــف عنه المرض فى مراحله الأولـــى، ثم حفظت "سورة يس" بعد أن تفاقم مرضه بشكل متسارع فـــى الأســـابيع اللاحقة، أقرؤها لأجله كل يوم، ومع استمرار تأخر حالـــته بـــدأت أستجدى الله بحق كل ما هو مقدس أن يشفيه. وقرأت الصـــلوات المسيحية مع كريستين: أبانا الذى فى السماوات. يتقدس اسمك ليأتى ملكوتك. تكن مشيئتك فى السماء...

مـــوت عمـــاد كســـر قلبينا. قتل شيئا فى روحى وروحها، ولم يســـتطع أى شيء بعد ذلك أن يعيد إلينا ما كسر..، لولا وجود حنين بعد ذلك بسنوات.

حنين التى أكتب لأجلها هذه المذكرات. ربما لتعرف بعضا مما حجبـــناه عـــنها، أو لأعزيها عن سنوات طفولتها التى قضتها هناك وحـــيدة فى باريس. أو ربما أننى أكتب لنفسى أنا أيضا لأستعيد كل تلك الذكريات.. كلها معا.

-٢-

اغتـــيال الســـادات جعلـــنى أستعيد عزلتى الاختيارية، وإعادة التفكـــير فى كل شيء مرة أخري. أشفقت عليه بصدق، رغم شماتة داخلـــية عمـــيقة ســـيطرت علـــى عند سماعى الخبر، مذهولا، من الـــ (بى بى سي).

فى أثناء مشاهدة العرض العسكرى على شاشة التليفزيون كثيرا مـــا فكـــرت فى خالى المعتقل، وفى الأسماء الكثيرة، والكبيرة، التى اعتقلها خلال الأسابيع القليلة التى سبقت احتفال ٦أكتوبر، بينما أتأمل مظاهر الغطرسة البادية على وجهه المتغضن بالإرهاق والتعب.

وعـــندما انقطع الإرسال التليفزيوني، انفجر السؤال فى أعماقى آملا أن تكون الإجابة بالإيجاب، هل قتلوه؟!

هل يستطيعون إقامة الحكومة الإسلامية إذن؟! ما الذى سيحدث فـــى الأيام المقبلة؟ وهل يمكن للقادم الباهت أن يسيطر على كرسى محاط بكل هذا الرعب؟ إلى أين تسير مصر؟

كانـــت الإجابـــات كلهـــا لا تدعو إلا للقلق والخوف من القادم المجهـــول. هل يملكون القوة والقدرة على فعل ما هو أكبر من قتل السادات؟ وهل اخترقوا المؤسسة العسكرية فعلا؟

ثــم بـــدأت أســئلة أخرى كان علىّ أن أجيب عنها وأهمها هو هــل كنت أنتمى إليهم؟ فى البيت، كان أبى مستاء تماما من مظهرى العــام، وحــتى أمـــى ونادية. كانوا يرون فىّ شخصا غريبا يحاول العــودة إلـــى عصور الظلام. وبدأ أبى يشعر بكراهية حقيقية لخالى "محســن" ظــنا مــنه أنه السبب فى هذه العودة الظلامية إلى ماض سحيق. وكنت أجادل أبى وأعانده فى نقاشاتنا حول الموضوع، بينما كنــت فى أعماقى أعرف أننى بالنسبة لأصحاب الذقون لم أكن مثالا للشـــخص النموذجى الذى يبحثون عنه، ولم أتمتع بمحبتهم، فى الله، بشــكل كــامل كما كان حظ آخرين من الأصدقاء الذين غسلوا لهم عقولهم تماما، بحيث أصبحوا مهيئين للمراحل التالية.

الحقيقة أننى لم أنضم إليهم نقمة على الفقر، ولا بحثا عن مكانة فـــى مجــتمع لا تتكافأ فيه الفرص. وإنما، كنت فقط، مقهورا لفقدان عمـــاد الموحـــش. انتظمـــت فـــى الصلاة يوميا بالمسجد لأدعو له بالـــرحمة، ودرءا للاكتـــئاب الثقـــيل الذى سيطر على كل حواسي. وهـــناك اســـتدرجونا بثواب تحفيظ القرآن للأميين، وتدريجيا.. ومع ذلـــك، كنـــت أعـــود بين آن وآخر لروايات ديكنز وفيكتور هوجو ومحفـــوظ، وســـارتر، حتى فى أثناء قراءتى للخطايا الكبرى أو فقه الســـنة ومعـــالم فـــى الطريق، وكتب السيرة، وآداب قراءة القرآن وغـــيرها مـــن كتـــب الأفكار الأساسية لحسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين.

وربما لهذا كنت دائما على حافة المسألة، دون رغبة حقيقية فى الاندفـــاع إلى السلفية. أحببت تفسير سيد قطب "فى ظلال القرآن"..

فكـــر جديــد، تـــداول مختلف، يضع المجتمع المعاصر نصب عينيه ويعـــرف الغـــرب جيدا. تابعت أعداد مجلة الدعوة، وتعرفت أفكار "صـــالح ســـرية" صاحب، أول محاولة انقلابية فى عهد السادات فيما عرف بحركة الفنية العسكرية.

تعاطفت مع خطبة "الشيخ عمر التلمسانى" المرشد العام للإخوان المســلمين آنذاك. ودهشت من جماهيريته الكبيرة. امتلأ مسجد فريد المصـــرى عـــن آخـــره، وفرشت الحصر حول الميدان كله خارج المســجد، وفى الشارعين اللذين يحيطان بسور المسجد. أحببت فكرة أن مـــن أهـــل الجـــنة شابا نشأ فى طاعة الله. كما كنت أحب تلاوة القـــرآن مقلـــدا قراءة "الشيخ عبدالباسط عبدالصمد". وأذنت بصوت وصفه "الشيخ عبده" إمام مسجد فريد المصرى بأنه صوت "معيزي"، بيـــنما وصـــفه آخرون بأنه يشبه الأذان السعودي، شغوفا بفكرة أن المؤذنين أطول الناس أعناقا يوم القيامة. تبرعت لإخواننا المجاهدين الأفغـــان فـــى حربهم مع الاتحاد السوفييتي. وأعطيت الشيخ يسرى الســـاعتين اللتيـــن كنـــت أمتلكهما عن طيب خاطر بعد انتهاء ندوة الثلاثاء بالمسجد.

حاولـــت كثيرا تقليد الرسول- بعد يأسى من محاولات استدعائه فـــى أحلامـــي- بالـــنوم على أرض الحجرة الخشبية الصلدة، تقشفا وزهـــدا وسيرا على نهجه. لكن الآلام المبرحة التى أصابت ظهرى وضلوعى منعتنى من الاستمرار فى مثل هذه المحاولات البائسة.

لكـــنى لم أستسغ كثيرا فكرة الجماعة والأمير. فى أعماقى كان هـــناك شيء ما يصطدم بهذه الفكرة. فالإجابات المغلقة بحدود قدسية

المـــابعد: مـــا بعد القدرة على التخيل، وما بعد المعرفة، كانت- ولا زالـــت- جوهـــرية جدا وأساسية. كان هناك شيء ما فى ممارساتهم ضد فكرتى عن الحياة. يحولونها بأفكارهم إلى زنزانة ضيقة مسورة بحـــدود الممـــنوع والمحـــرم، وبأفق ضيق يتناسى أربعة عشر قرنا كاملا من تطور البشرية، فاقدين الإحساس بالزمن والوعى بالتاريخ.

كنت أفكر كثيرا فى كريستين محاولا أن أتخيل حياتها فى الدير بردائها الطويل ووجهها الملائكي. عيناها تنتزعانى من أعماق النوم. يناوشنى صوتها وهى تردد تراتيل غامضة لا أفهم منها شيئا. تجلس فـــى مغارة مظلمة يضيء وجهها المتبتل وهج الأيقونة التى تصلى أمامها تمثل المسيح مصلوبا. وفى نفس المغارة فى ظلمة أخرى أرى نفسى أحوم مع المتصوفين فى حلقة ذكر كبيرة، يدور رأسي، وأغلق عينى وأفتحهما وفقا لتتابع الوميض الذى يلاحقنا دون انقطاع.

وبعدهـــا استرجعت حلمى الطفولى الذى يسر لى رؤية الرسول والهالـــة النورانـــية الربانـــية تبشرنى بالنبوة. ومع ذلك فقد اكتفيت بالصلاة فى البيت، ووسعت تدريجيا من عالم قراءاتي، بينما تعصف بـــروحى حالـــة من القلق، حتى رأيتها يوما مصادفة. وأدركت منذ اللحظـــة الـــتى التقت فيها عيناى بعينيها أن شيئا عميقا سيتغير فى حياتـــي. نعـــم.. لن يتحقق حلم النبوة الذى كنت أحتفظ به فى عمق أعمـــاقى كأنـــه صك الغفران.. أخرجتنى من الجنة.. لكننى عرفت معها جنة أخرى!

-٣-

فـترة الفسحة فى "مدرسة الملك الصالح" الإعدادية كانت بمثابة الفــترة النموذجية للوقوف على البروز الأسمنتى الذى يتوسط جدار ســور المدرســة الموازى للبوابة الحديدية الضخمة. فمن هنا، موليا ظهرى لمباريات كرة القدم ومشجعيها، ستكون الفرصة أمامى سانحة لمشــاهدة الفتــيات فــى السكن الداخلى لطالبات "المدرسة اليونانية" المواجهة لنا، فتيات شقراوات بيضاوات نحيفات مثيرات للخيال. أما هــى فقــد لمحتها، فى إحدى مرات وقوفى على السور، وهى تخلع ثيابها غير منتبهة للنافذة المفتوحة، ولا لوجودى الذى خرج فى تلك اللحظــة عــن حــدود الوعى بأى شيء سواها، بفضل لقطة لمحتها للحظات قبل أن تقوم ذاكرتى بتثبيت الكادر الذى صاحبنى فى حياتى طويلا: عارية.. لكنى لا أرى من مكانى سوى بياض الكتف البض، والجــزء العلوى من ظهرها، والنهد الصغير الذى لم تظهر صورته سوى للحظات رفعت خلالها ذراعيها قبل أن تهبط بهما سريعا، وهى تجــذب ستار ثوبها، مسدلة إياه على المشهد الذى هز روحى وقطع أنفاسى وأصابنى بالاضطراب لفترة طويلة.

عندما رأيتها بعد كل تلك السنوات عرفتها فورا. بدت أطول من صــورتها كمــا يحتفظ بها خيالي، وأكثر نضجا من اللقطة الطفولية

الثابـــتة داخـــل الكـــادر. دهمتنى عيناها أثناء مرورى أمام "كازينو منـــيرفا". عيـــنان رماديتان واسعتان، شعر قصير بنى داكن، جسد مدملج، رشيق ومتناسق.

لـــم تكـــتف بتأثـــير عينيها على روحى، إذ باغتتنى بسؤال عن الساعة، وأجبتها، بعد أن خطفت نظرة سريعة إلى الساعة فى يدي. وحاولـــت أن أتمـــالك نفسى وأنا أسألها عما إذا كانت تواجه مشكلة بســـبب اللهفـــة الـــتى سألتنى بها عن الوقت، والجدية الشديدة التى أغرقت ملامح وجهها.

وفاجأتـــنى بالبساطة التى ردت بها علي، بلكنة عربية مكسورة، وهى تومئ باتجاه العمارة المقابلة أنها تنتظر اتصالا هاتفيا من أمها فى "النادى اليونانى" تمام الخامسة، وأنها فوجأت بالمكان مغلقا.

الدقائق الخمس التى فصلت بين بدء هذا الحوار ظهور "أليسكو" حـــارس النادي، ملأتها بثرثرة عشوائية حاولت بها أن أعرف منها أكـــبر قـــدر ممكن من المعلومات عنها وعن حياتها، لكن النتيجة لم تـــتجاوز بعض الشذرات حتى لمحت، من خلف كتفي، شخصا نادت إلـــيه وهـــى تلوح، وبنبرة لم تخل من غضب: أليسكو.. وانصرفت بســـرعة تركض إلى الجهة الأخرى من الشارع باتجاه باب العمارة التى يقع النادى فى طابقها الخامس، دون أن تلتفت إلي.

* * *

بعد أسبوعين من هذا اللقاء الخاطف، عدت إلى البيت في ساعة متأخرة. دخلت غرفتي بعد أن ألقيت تحية مقتضبة على أمي التي لم تكن لتدخل إلى فراشها قبل أن تطمئن على حضوري وإعداد العشاء. لكنني أخبرتها أنني سأنام فورا لأن لدى محاضرات مبكرة في اليوم التالي. والحقيقة أنني كنت، فقط، أحاول إخفاء سكرى البين عنها، وتماسكت حتى دخلت غرفتي، وأغلقتها وأنا أرد على أمي تحيتها التي تسللت إليّ من خلف الباب: تصبح على خير يا حبيبي.

كان ما حدث يشبه الحلم. لكنه حدث فعلا. وها أنا ذا على سريري، أنام بثيابي التي تتعطر بعبق ماريا، تدور الغرفة رأسا على عقب كلما أغمضت عيني بفعل كؤوس النبيذ وأكواب البيرة التي تجرعتها في نخبها خلال سهرة النادي اليوناني.

يوم الأحد التالي لرؤيتها لم أدافع رغبتي في الذهاب إلى حيث صادفتها قبل أسبوع. ومنذ الساعة الرابعة وقفت أمام كازينو منيرفا قليلا، ثم حومت إلى الجهة الأخرى من شارع البحر أسفل العمارة التي تأوي النادي اليوناني، وأخيرا لمحتها فعلا تهبط من سيارة أجرة برفقة فتاتين شقراوين، قبل أن يعبرن الطريق باتجاهي. أوقفتها وحاولت أن أذكرها بنفسي. سددت نظرها وهي تعتذر لي عن عدم تذكرها أنها رأتني قبل ذلك. لكنني تحت ضغط عميق من نزوة غامضة في عمق روحي رجوتها أن تحاول التذكر، وطلبت منها أن أحادثها على انفراد.

النظرة التي رمقتني بها جعلتني أشعر بالبلاهة، والارتباك، لكنني لمحت في عينيها طيفا شاحبا من الفضول تمسكت به وأنا

أحـــاول اســـتدعاء كـــل الخـــيوط التى تتيح لى امتداد الحوار مبديا إصـــرارا عنيدا لكى أحادثها على انفراد، حتى رضخت أخيرا تحت ضغط إلحاحى. ابتسمت وهى تهز رأسها كأنها لا تعرف ماذا تفعل، ثم طلبت من رفيقتيها أن يسبقاها. ولم ينته لقائى بها إلا بعد أن تلقيت مـــنها دعوة لحضور حفل رأس السنة الذى كان من المقرر أن يقيمه النادى بعد أسبوع.

* * *

فـــى الشـــقة الواسعة التى تطل النوافذ الرئيسية فيها على النيل وقفـــت محاطا بالصخب، أتأمل الوجوه بفضول وشغف. بعضها كان مألوفـــا، كمـــا تسير الأمور عادة فى مدينة صغيرة مثل المنصورة، حيث رؤية أى شخص فى اليوم الواحد عدة مرات أمر طبيعى. من بين هذه الوجوه لاحظت ملامح بعض الفتيات اللائى كنت أشاهدهن قريـــبا مـــن المدرسة اليوناني، جميلات جمالا مراهقا. أما هنا، مع الماكـــياج المفرط والملابس العارية، والعطور التى يفوح أريجها فى المكان، فقد بدون نماذج للجمال الأنثوى الإغريقى فى أوج تألقه.

كنت المصرى الوحيد فى المكان على ما يبدو، أحاول أن أفهم شـــيئا مما يرطنون به حولي، وبجوارى وقفت "ماريا" ترتدى فستانا أحمـــر قصـــيرا يظهر ساقيها المدملجتين، وذراعيها وكتفيها اللتين كشـــفتا بجمـــال تكوينهما وبياض بشرتها الحليبية بذخ أنوثتها. ومع الماكياج الخفيف الذى زينت به وجهها بإتقان بدت فاتنة.

تركـــت نفســـى لها باستسلام كامل. فتحت لروحى كل الأبواب المغلقـــة، وهربـــت من كل الوساوس التى تطاردني، ومن هواجسى وروحى المضطربة. حررت نفسى من أصحاب الذقون، ومن طيف كريســـتين، وشبح عماد. أخمدت- ببرود وإصرار- وهج ضميرى الذى كان ينفث غضبه راجما روحى بعذاب التأنيب، وتجرعت معها البـــيرة "ستلا" التى كانت زجاجاتها الخضراء التقليدية تحيط بنا فى كـــل مكـــان، وهو ما ساعدنى فى إطلاق جسدى لأشاركها رقصاتها المجنونة.

وبعدهـــا شـــاركت أكثر الشباب الموجودين مرحا فى مسابقات تجـــرع النبيذ، بكل أصنافه المتاحة على المنضدة الطويلة فى أقصى الركـــن الأيمـــن المجـــاور لـــباب النادي: "البطالسة" و"عمر الخيام" و"الـــروزيه". وبعـــد لحظات كنت أضحك بهيستيريا. أشعر بتضرج وجهى من إحساسى بالتهاب وجهى بالحرارة، ولا أسمع شيئا من كل الصـــخب والضـــحكات الهيســـتيرية من حولي، بفعل الوشيش الذى تحـــول تدريجـــيا إلـــى طنيـــن مكتوم عزلنى فى بللورة سحرية من الصـــمت. وعبر زجاجها الشفاف لا أرى سوى وجه ماريا الملائكى يحيط بى من كل اتجاه.

- ٤ -

ماريـــا قلبت حياتى رأسا على عقب. أصبحت مركزا لوجودى يـــبدأ عندها كل شيء، وينتهى أيضا. حتى إحساسى بالزمن، لم يعد ســـوى متواليات من العد التنازلى أنتظر فيها أيام الآحاد التى مثلت لقاءاتنا الأسبوعية.

أنـــتظرها قريبا من "بيت المحافظ"، فى الطريق العلوى المواجه للمدرســـة الـــيونانى فـــى طريقـــنا إلى "نادى التجديف" على الضفة الأخـــرى فى طلخا، أو "كازينو النيل"، وأحيانا نذهب إلى "راندوبلو" الذى يقع فى الشارع الصغير الذى يفصل بين شارع البحر و"ميدان الطميهـــي"، وقبل ذلك وبعده، كنا نسير ببطء على امتداد الكورنيش حـــتى "الهـــابى لانـــد" لنعبر إلى طلخا مرورا على كوبرى القطار، نخـــتار أهـــدأ شـــوارع طلخـــا المظللة بالأشجار لنواصل حواراتنا الهامسة.

حكيـــت لها عن كل شيء: نادية التى كنت أعرف قدرتها على الإحســـاس بكل ما يمر فى روحى من شعور وخبرات نفسية، وعن عمـــاد وموتـــه الدرامـــى الذى ترك ثقبا أسود فى روحى لا يرجى شـــفاؤه، وعـــن كريســـتين حبيبة الطفولة، والراهبة الحالية التى لا أعرف عنها شيئا.

أمـــا هـــى فقد أخبرتنى عن حضورها إلى الإسكندرية بصحبة والديها وهى طفلة، حيث عاشت فترة طويلة قبل أن يقرر الأب والأم الانفصال. وتمسكت أمها برفقتها لتعيش معها فى الإسكندرية بعد أن اخـــتار الأب العـــودة إلى أثينا. وبعد تدهور أحوال أمها قررت أن تحضرها إلى المنصورة على اعتبار أن المدرسة اليونانية كانت تجد دعمـــا من بعض أثرياء الجالية اليونانية. أخبرتنى عن حياتها الرتيبة داخـــل المدرســـة، وسهرات أيام الآحاد بالنادى اليونانى بعد زيارة الكنيســـة، وعـــن صـــديقتيها تالـــيا وريتا. وعن ذهابها لقضاء فترة الصـــيف مـــع أمها بالإسكندرية، باستثناء المرات التى يدعوها فيها والدها لقضاء الصيف معه فى اليونان.

* * *

- كاليبيرا ماريا.

وترد التحية ضاحكة، وأنتشى بضحكتها فأقول لها:

- إيسى أوريا.. ماريا..

فتغرق فى الضحك على نطقى البدائى لليونانية.

فى الشارع الضيق الذى يفصل بين "عمارة التليفزيون" وحديقة الحـــيوان، همست لي: رامي.. ثيتو ساس شيرى ديكوس ما كارديا (فهمت منها لاحقا أنها تعنى ضع يدك على صدري).. لم أفهم شيئا، لكـــنى شعرت بها وأنا أقترب منها مترددا، وأكاد أسمع خفقات قلبى المـــتلاحقة. قبلـــتها قـــبلة محمومة بينما نجلس على بلاطة رخامية

مرفوعة على كتلتى حجر راسختين. شعرت بحركة هينة بين ساقى فور أن فاجأنى ملمس فخذيها بنعومتهما المفرطة بعد أن تسللت يداى من تحت الجيب القصير الذى ترتديه. توقفنا للحظات ونحن ننظر حولنا فى قلق. أمسكت بيدها لأساعدها على النهوض باتجاه ظهر العمارة خلفنا. غبنا عن الوعى بأى شيء عدا احتفالية القبلات اللاهثة المحملة بشبق الرغبة. وينطلق من أعماقى مارد الشهوة مستفزا باستسلامها الكامل، تاركة لى شفتيها.. رقبتها ووجنتيها فيضا من النعومة. صرخت صرخة مكتومة عندما حاولت إمساك نهديها- اللذين هالنى تحررهما من أى قيد- من تحت البلوزة البيضاء.

باغتنا ارتطام شيش النافذة التى تعلو رأسينا بجدار العمارة فجأة. وأخمد الرعب- فى لحظة- تأجج الشهوة التى كادت تبلغ ذروتها، وانطلقنا نركض باتجاه مزلقان القطار الذى يبدأ بانتهاء حدود سور حديقة الحيوان. لكننا لم نتوقف عن الركض إلا عندما أصبحنا فى مواجهة بوابة مدرسة الملك الصالح، نتلفت خلفنا مذعورين، رغم أننا لا نرى أحدا يلاحقنا، قبل أن يتحول ذعرنا لضحكات مكتومة سرعان ما انقلبت إلى حالة هيستيرية يغلفها الضحك بينما تطلقها لذة اكتشاف الرغبات المكبوتة التى وأدها الرعب والإحساس بأن لذتنا تعرضت لتلصص عيون لا نعرف أصحابها.

- ٥ -

ماريـــا.. غـــيرت حياتى بشكل كامل. لم تعد "المنصورة" مكانا خانقـــا محدودا. ولم أعد أشعر بالملل من تكرار الجلوس فى "كازينو النـــيل"، ولا مـــن النظر إلى ملامح وجهها الجميلة غارقا فى تأمل عينيها الرماديتين الشهوانيتين، والحالمتين فى نفس الوقت، فى أثناء جلوسنا إلى المنضدة الأثيرة، أقصى الركن البعيد عن السلم، بالطابق الثانى فى "راندوبلو"، نأكل "الكاساتا" ونثرثر بدون توقف.

من "راندوبلو" ننطلق يمينا إلى "ميدان الطميهي" نبحث عن "عم مصـــطفى" نائما فى واحدة من عربات "الحنطور" التى تتراص خلف بعضها فى صف طويل، يتعلق كل منها بواحد من الخيول التى تتقدم العربات، يأكل كل من كيس التبن الموضوع على الأرض.

نجلـــس متجاوريـــن علـــى الأريكة الجلدية السوداء التى يأخذ ظهـــرها شـــكلا زخرفيا تكونه وحدات مضلعة متماثلة مستوحاة من التصـــميمات الكلاســـيكية الأوروبـــية القديمـــة. وأمامنا يجلس عم مصطفى متأهبا، يمسك الكرباج بيده اليمنى وباليسرى طرفى اللجام. تـــأكل البهجة قلبينا، وتتغلف مشاعرنا بالإحساس بالخصوصية، بينما نهـــتز علـــى إيقـــاع الســـير الواهن المرتبط بطرقات حدوات أقدام

"فيروز": الفرس الأبيض المبرقش ببقع رمادية تتناثر بعشوائية على جانبى ظهره.

نمـر علـى مقهـى "أندريا" بواجهته الخشبية والنوافذ الضخمة المؤطرة بنفس لون الخشب البنى الداكن. نقطع "شارع بورسعيد" فى نقطـة الـتقائه مـع "كوبرى طلخا" لنستكمل السير فى امتداد شارع الـبحر. نـنظر إلى الجهة اليسرى حتى نشاهد المبنى الأبيض اللون المكـون مـن طابقين. وتشير ماريا إلى الطاولة التى نحب الجلوس إليها فى كازينو النيل.

إلـى اليميـن سنلتقط أفيشات الأفلام المعروضة على واجهات السـينمات تباعا: سينما "النصر"، "عدن". ثم تقوم ماريا لتجلس على الأريكـة الصـغيرة التى تواجهنا لكى تستطيع أن تلمح أفيش "سينما ريكـس" الـتى تقع فى شارع جانبى يصل بين شارع البحر وشارع السـكة القديمة. وأخيرا، وبعد تقاطع شارع البحر مع "شارع حسين بك" سنتأمل أفيش "سينما أوبرا".

كـنا قـد شـاهدنا سـوياً عدة أفلام فى لقاءات الأحد. اشترينا تذكرتين من أحد الشباب الخارج من بين جموع المراهقين المحتشدة أمـام سـينما أوبـرا، بضعف الثمن، لكى نشاهد فيلم "الصعود إلى الهاوية". كانت مشاهد الإغراء السحاقية التى أدتها "مديحة كامل" فى الفـيلم تـتداول بين الشباب بشغف شديد، وتجعل من الممر الضيق المـؤدى إلـى مبـنى السينما الدائري، فى كل فترات حجز التذاكر للحفـلات المخـتلفة، جحيما من الزحام والصخب استمر طوال أيام عرض الفيلم.

شـــاهدنا أفـــلام "بد سبنسر" التى لم أكن أحبها كثيرا بينما كانت ماريا مغرمة بها. شاهدنا عرضا لفيلم "كينج كونج" فى سينما النصر، كما شاهدنا الفيلم الذى أصبح أيقونتنا لاحقا "حمى ليلة السبت" ورحنا بعدهـــا نستمع إلى أغانى الــــــ Bee Gees بولع هستيرى والتى كانـــت بديـــلا رائعا لإيقاعات "البونى إم" الإفريقية الحية لرومانسية "ديميس روسوز" المفرطة.

نمـــر علـــى "الهابى لاند" ونتجاوزه بنفس الإيقاع المنتظم على دقات تصنعها طرقات الخطوة المنتظمة التى يسير بها "فيروز" حتى نصـــل إلى مبنى المحافظة. نهبط من الحنطور ونودع عم مصطفى بمحـــبة فيقرع بإحدى قدميه رنات متتابعة من الجرس النحاسى الذى يمـــثل نفـــير الحنطور، ثم يحيينا بحماس وهو يطرقع الكرباج عدة مرات بجوار أذن فيروز يستحثه على الركض.

نعـــبر إلى الجهة الأخرى حتى نصل سور "تفتيش الرى" فنسير الهويـــنى بمحاذاتـــه، نتأمل أشجار التوت الوارفة التى تمتد بامتداد الســـور الـــذى ينتهى بالبوابة الأنيقة لبيت المحافظ، بمدخله الواسع الأنـــيق المـــبلط ببلاطات أسمنتية حمراء، وبمبناه الأوروبى الطراز الـــذى تعلوه طبقة من القرميد الأحمر مستوحاة من شكل الخيمة. ثم نعـــبر الشارع الصغير المواجه لنهبط إلى الشارع السفلى الذى تقع المدرســـة اليونانـــية فى أوله، ولا أودعها إلا بعد أن أسمع الصرير الحـــاد للـــباب الحديـــدى الضـــخم الذى يتوسط عمودين أسطوانيين يعلوهمـــا قـــوس حاد الزوايا، مثلث الشكل، منقوش عليه بالحروف اليونانية اسم المدرسة.

لــم تفعــل شيئا خارقا، لكن وجودها خلق لحياتى معنى آخر، وأصــبحت أرى العالم من منظور مختلف، أوسع كثيرا من منظور الإســلاميين، الضــيق، للحــياة. أغلقــت أبواب العذاب، والانكسار الرهيــب الذى سببه موت عماد، ثم غياب كريستين الذى ارتبط فى وعيى بغياب الموت.

-٦-

قبل أسابيع قليلة من نهاية العام الدراسى الذى كانت تستعد فيه لعامها الأخير بالمرحلة الثانوية تقرر نقلها إلى فرع المدرسة بالإسكندرية. كانت أعداد الطلبة فى المدرسة تقل تدريجيا، مع انتقال أغلب أفراد الجالية اليونانية من المنصورة. وهو ما كان يضطر إدارة المدرسة لنقل الطلبة الذين لا يكفى عددهم لاستقرار تدريس المناهج إلى الإسكندرية. ولم يكن هناك مفر من إغلاق المدرسة بشكل نهائى فى غضون عدة سنوات، لتتحول إلى مدرسة تجريبية للغات، ولا يبقى أثر للجالية اليونانية سوى الشقة التى تأوى النادى اليونانى ومحل الخمور الذى يتوسط أحد الشوارع الضيقة فى "ميت حدر" "تنطق ميت حضر" الذى كان يكتب اسمه بالحروف العربية الحمراء "باولو كريا كيدس" قبل أن يغلق حانوته منذ عدة سنوات مع إشاعة تداولها بعض المتدينين أنه أعلن إسلامه واعتزل بيع الخمور!

الأيام التى كنت ألتقى فيها ماريا بالإسكندرية، تعلقت فى ذاكرتي، وبدت بمرور الوقت كأنها حالة خيالية انتزعت من واقع حياتي، نموذجا لحياتى كما أفضل أن تكون فى بللورة زجاجية تطير بى عبر الزمن والواقع، لكنها فى ذلك الزمن، كانت تجمعنى بماريا.

جولات المشى التى كنا نقطعها بلا كلل، وبلا إحساس بالزمن، أو التعـب تـبدأ من "ميامي"، ولا تنتهى إلا أمام قلعة قايتباي. نقف متضامين أمام مياه البحر، نحدق فى الأفق البعيد، نتخيل حياتنا على الشاطئ الآخر فى اليونان كما كانت ماريا تتمني. همست لى بأنها لا تعـرف معـنى آخـر لحضورها إلى مصر خلال كل هذه السنوات وتـنقلها بيـن الإسكندرية والمنصورة إلا لتتعرف إلى. وأؤيدها عن يقيـن، وأعلـن لهـا ارتـياحى لابتعادها عن المدرسة اليونانية فى المنصـورة الـذى يعنى ابتعادها عن "الكسندر" زميلها الذى يغازلها باستمرار.

كنت أشعر بلهيب الغيرة منذ رأيته للمرة الأولى فى حفل رأس السنة. كان يحاول أن يتودد إليها بشكل مبالغ فيه كأنه ينقل لى رسالة خاصـة. عاملـته ببرود محاولا إخفاء توتري. بينما هو يتأملنى فى هـدوء.. ويحـاول بيـن آن وآخر أن يجد الفرصة ليلتصق بها أو لـيرقص معهـا. قالت لى إنه يجلس إلى جوارها فى الفصل، وإنه يحـتفظ بمجـلات عارية يريها إياها أثناء الحصص من خلف ظهر المدرسين. وفهمت أنه يحاول إغواءها بشتى الطرق. حكت لى يوما أنهـا وجدتـه بجوار فراشها يوما يجلس على كرسي، ليراقبها وهى نائمة، ولم تكن ريتا وتاليا فى الغرفة. وأنها لم تعرف قط كيف تسلل إلى غرفتها فى سكنى البنات.

لـم تخـبرنى أنـه كان يشاهدها وهى عارية. لكنى فهمت ذلك عندما قالت لى فى حوار عابر إنها لا تستطيع النوم سوى بسروالها الداخلـى صيفا أو شتاء (توب ليس)، وهو ما أحرق دمى لعدة ليال

حتى أكدت لى مرة تلو الأخرى، أنه لا يمثل لها أى شيء. وأعقبت ذلك بحكايات مطولة عن تفاهاته وملاحقاته المستمرة لفتيات المدرسة وبينهن ريتا وتاليا.

أمـــام البحر كانت تغنى بصوتها الجميل أغنيات يونانية لا أفهم مـــنها شـــيئا.. أخبرتـــنى أنهـــا مغرمة بمطربة يونانية هى "هاريس آلكســـو".. وكانت تغنى المقطع الذى أحبه بصوتها: "أتان بينسى ميا جينـــيكا".. ثـــم التفتـــت لى وهى ترسم ابتسامتها الجميلة وتغمز لى بـــإحدى عينـــيها قائلة: الأغنية دى معناها.. لما الست تحب تشرب! وفـــى الشـــقة التى تعيش فيها مع أمها قريبا من محطة الرمل حيث عرفتنى إلى أمها.. معلنة اسمها بفخر "هى دي: ستيفانا ديمتريوس.." كـــانت سيدة ذات ملامح تكشف عن بقايا جمال، كان- على ما يبدو- فاتنا فى شبابها بينما تحول شعرها الأشقر إلى اللون الرمادي.

وبعـــد أن تـــثرثر معنا قليلا تتركنا وتذهب إلى غرفتها. وعلى الفـــور تسرع ماريا إلى جهاز البيك آب العتيق لتسمعنى أسطوانات "هـــاريس أليسكو": صباح الخير أيتها الشمس (كاليمارا إليا) وبعض أغنـــياتها الأحدث آنذاك أولاس تى ميزون (كل شيء يذكرنى بك)، وفـــيفجو (إنـــى راحلـــة)، وتـــا تـــراجوديا تيس هيتسبينس ميراس (أغانى الليلة الماضية).

أســـمعتنى أيضا مقطوعة موسيقية لـــمانوليس كالوميريس الذى أخبرتنى أنه أحد الموسيقيين الكلاسيك. كما استمعت، دون أن احتفظ بهـــا فـــى ذاكرتـــي، إلى أغان متفرقة لـــديميترا جالانى وأندونيس كالويانيس ويانيس باريوس.

فـــى الإسكندرية كان جمالها يبدو متألقا، وجهها ينطق بالحيوية الـــتى افتقدت الكثير منها فى المنصورة. كانت تبدو لى آنذاك وكأنها تعـــيش فى موطنها الذى ولدت فيه، بالإضافة إلى أنها كانت تعرف حـــوارى وأزقـــة الإســـكندرية، بمـــا يفوق ما تعرفه أى من بنات إسكندرية.

قالـــت لى إنها تريد أن تصحبنى إلى مكان يعج بأجواء اليونان، طلبت منى أن أرتدى زيا أنيقا، بينما ارتدت هى فستانا أسود طويلا، بلا أكمام، مطرزاً بالترتر على المسافة التى تغطى صدرها.

طلبت من التاكسى أن يذهب إلى "شارع صفية زغلول" وعندما نزلـــنا مـــن التاكســـى توقفنا أمام واجهة خشبية كبيرة تتخللها قطع زجاجـــية مســـتطيلة متماثلة، وفى أقصى طرف الواجهة وجدنا بابا خشـــبيا صغيرا فولجناه بعد أن تأملت الحروف اللاتينية التى تعلوه Santa Lucia (سانتا لوتشيا).

بـــدا لى مكانا عتيقا يحتفظ بعراقته، ليس له رونق فخم بقدر ما يفـــيض بالأصـــالة. تناولنا عشاء مميزا على منضدة تقع فى الركن الذى تبدأ بعده حدود الملهى الليلي. بجوار نافذة ضخمة تعلو الأرض بنحو نصف متر وتمتد حتى السقف. خلف النافذة الخشبية الكبيرة من الـــزان مغطـــاة بزجاج مبرقش تتدلى عليها ستائر "ملس" بتدرجات لونها بيج فاتح.

عندما دخلنا البار كان المكان ممتلئا عن آخره. وإلى اليمين كان جهـــاز "أورج" موســـيقى يجلـــس إليه شاب يونانى وبجواره عازف "أوكورديـــون" عجوز، وأمامهم وقف شاب وفتاة شقراوان يصدحان

بأغـــانٍ يونانـــية بدت لى ذائعة من شدة حماس الجمهور لها. لم نجد مكانا سوى مقعدين أمام البار فاتجهنا نحوهما.

لا زلت أحتفظ بتفاصيل المكان، رغم أنى لم أذهب إليه بعد ذلك ســوى مرة واحدة: البار من خشب الزان المطلى باللون الأسود، أما المقــاعد الدائــرية المتراصـــة أمامه فقواعدها من الجلد ذى اللون الــبرتقالى الذى أعطاه الزمن درجة داكنة، بينما أشاع الخشب، الذى يكسو الجدران، الدفء فى المكان.

عرفنا اسم البارمان من كثرة تردد اسمه من الحضور: نيكولا. أخبرتنى ماريا أن اسمه الكامل "نيكولا كريونيتاكس" وأنه أحد أشهر "بارمـــان" فـــى الإســكندرية لأنه عايش أحداثا تمتد إلى زمن افتتاح "ســانتا لوتشيا" لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية. طلبنا منه بيرة قبل النبيذ.

وشـــاركنا الحضور رقصا كان الجميع يؤدونه بإتقان. أخبرتنى ماريا أن الرقصة اسمها "الفرسكو". وفى منتصف الليل انضممنا إلى منضدة ضمت صديقة قديمة لماريا ومعها صديقها وأختها.

ولكزتـــنى ماريا بذراعها عندما لاحظت أننى أتأمل جمال الفتاة بشغف وقالت لى ضاحكة: "أليسيا" كانت ملكة جمال أثينا السنة اللى فاتت. وقد بدت لى فاتنة فعلا بملامحها الشرقية.. شعر أسود طويل، عيـــنان ســـوداوان واسعتان وعميقتان ووجه بيضاوى تتوسطه شفتان شـــهوانيتان مثـــيرتان. بينما فضح فستانها الأزرق مكشوف الصدر حجـــم ثديـــيها الكبيريـــن. أمـــا صديقها فقد بدا أيضا وسيما بملامح شـــرقية. وكانـــت ماريا تبادلهما الحديث باليونانية، بينما التزمت أنا

والفتاة الثالثة "أكيليا" الصمت. باستثناء تعقيبى على ما تترجمه ماريا من حديث أليسيا بين آن وآخر.

فــى تلــك الليلة، لم تعد ماريا إلى البيت، فقد أخبرت أمها أنها ستبيت مــع أليسيا وأختها. لكنها عادت معى إلى الفندق الذى يحتل الطابقيــن العلويين فى إحدى العمارات العتيقة المطلة على كورنيش محطة الرمل، وكنت قد استأجرت لها غرفة تسللت منها ليلا لتغرقنى فى موجات من الفرح والوجل والارتباك تظللها سموات النشوة التى لــم أختبرها بمثل هذا التألق بعد ذلك أبدا. دخلت حجرتى لتخرجنى مــن الجــنة. فقد أدركت فى ذلك اليوم أننى لن أكون نبيا كما كنت أتوهم فى طفولتى بعد رؤياى التى كنت أقبض عليها بقوة اليقين حتى تســللت من بين يدى مع انزلاق ورقة التوت: كيلوت أبيض ناصع، مربوط إلى أسفل خصرها بخيطين رفيعين.

أخرجتــنى مــن حلم الجنة إلى جنة أخرى تفيض بخمر شفتيها ورؤى جســدها العذب عاريا، أطوف بحدائقه متبتلا، أقبل الشامات المتــناثرة علــى امتداده تزيد من جماله. وأرتشف معنى اللذة للمرة الأولــى مودعا عمرا من الكبت الجنسي، وصراع الهلاوس الجنسية مع أشباح الممارسات البيوريتانية اللاشهوانية. وطقوس توفير المني!

لم يفاجئنى اكتشاف أنها ليست عذراء، لكن ما داهمنى فعلا هو تجسد روح كريستين قبل لحظات من بلوغ الذروة، حتى إننى تعمدت ألا ألفظ بأى شيء خشية أن يغافلنى الاسم منطلقا من لاوعيى فجأة.

لــم أكــن شاهدت جسد كريستين، لكني، ولوهلة، تصورت أن الجسد المتناسق البديع أمامي، والثديين الكاعبين بحلمتيهما الورديتين

الصغيرتين هو أشبه ما يمكن بجسد كريستين، ولم يطرد هذا الهاجس مـــن رأســـى سوى الإلحاح المفاجئ لشبح ألكسندر بينما تندلع نيران الشـــكوك فـــى أعماقى بسؤال من تلك الأسئلة التى لا يمكن معرفة إجابـــتها.. هـــل فقدت عذريتها مع ألكسندر؟ ولا أعرف لماذا أطلق السؤال فى جسدى انفجارا مدويا للإثارة والشهوانية التى تسللت إلى ممارساتى الهادئة لتنقلها إلى مستوى آخر بذلت فيه طاقتى القصوى، كأننى أحاول إزالة آثار السابقين من ذاكرتها.. أيا كانوا!!

-٧-

الصــباح التالى كان جميلا بشكل غير اعتيادي. استيقظت قبلها بقلــيل، وكان غبش الضوء المتسلل من النافذة عبر المسافة الضيقة الــتى تفصل بين قطعتى الستارة تعلن عن ساعة مبكرة من النهار. أولتنى ظهرها العارى بينما أستمع إلى أنفاسها المنتظمة. تسلل عبق شــعرها- بلونه الذى يجمع درجتين من درجات اللون البني- كأنه عطر أنثوى كثيف اختلط بحفنة من تراب رطبته المياه.!

استيقظت حواسى تدريجيا. اقتربت منها لأستعيد خبرة الإحساس بالحــرية التى يولدها تلاقى الجسدين العاريين، واحتضنتها مبتهجا. تنفست بعمق، وأتانى صوتها هامسا:

- كاليميرا..

فهتفت لها وأنا أربت على ردفيها:

- كاليميرا أسبزو.

فأتانى صوتها ضاحكاً:

- صباح الفل يا حبيبي.

أدركــت مدى تحول العلاقة بيننا، أو ارتقائها، كأننا اكتشفنا فى أنفســنا- فجــأة- مــا لم نكن نعرفه. مثل الارتياح لصديق متحفظ واكتشاف روحه المرحة المفاجئة، فى سهرة ماجنة.

لـــم تكن هذه هى أولى خبراتنا الحسية المشتركة، فقد أتيحت لنا بعــض الفرص اللاهثة التى حاولنا اقتناصها: فى السينما، أو أسفل ســلم إحدى العمارات التى كنا نعرف أنها غير مأهولة بالسكان فى المنصــورة، وفى البيت أيضا، ولمرتين متعاقبتين سافر خلالهما أبى مصــطحبا أمـــى ونادية إلى الإسكندرية. ففى كل هذه المرات كانت الأمور تسير دائما بشكل لاهث ومرتبك وغير متوافق. ولم أستطع، حتى، أن أعرف إذا ما كانت عذراء أم لا.

أمــا فـــى تلـــك الليلة فقد بدت ناضجة، واثقة من نفسها، وهى تتعامل مع جسدى بخبرة. تمرر يديها المدربتين الرقيقتين بحنو على امــتداد جسدى وتتوقف أحيانا لتستبدل يديها بشفتيها فى طوافها على جســدي. كما كانت تستحثنى بعد ذلك لكى نتبادل مواقعنا، وتشجعنى على اكتشاف جسدها بحب. قالت إن كل ممارسة بهذا الشكل تعطينا الفرصــــة لاكتشـــاف أســـرار الجسد التى لا تنتهي. قالت لى إن كل حركة من حركات أصابعى على جسدها تشبه بيتاً شعرياً فى قصيدة. وكلما كانت خبرة الأنامل، كانت القصيدة أجمل. تذكرت هذه الخبرة بحنين وأنا أقرأ إحدى قصائد سعدى يوسف: (من أين أمسك بك/ لا الــنهد يملأ راحتى / ولا الزند/ وفخذاك ، فخذا الغزالة، هل تعرفان غــير الجــري/ حين أطوق خصرك / ترتسم أضلاع على أناملي/ لكــنك حين نفعل الحب ترفرفين / تطيرين وتهبطين - ممسكة جيداً بالعود..).

وبعـــد ســـنوات طويلة قرأت لأوكتافيو باث بعد حصوله على "نوبل" نفس المعنى بشكل أكثر عمقا: "العلاقة بين الإيروتيكا والشعر

هـــى من مستوى يمكن معه القول بدون أى تعسف بأن الأولى شعر جســدى وأن الـــثانى إيروتيكية لفظية. الإيروسية هى الجنس محولا إلــى اســتعارة، والمخيلة هى الوسيط الذى يحرك الفعل الإيروتيكى والشــعرى معـــا، هى القوة التى تحول الجنس إلى طقس وشعيرة، واللغـــة إلـــى إيقـــاع واستعارة. الصورة الشعرية هى عناق لوقائع متعارضـــة والقافية هى جماع أصوات. والشعر يضفى الإيروتيكية علـــى اللغـــة والعـــالم معا، لأنه هو نفسه ضرب من الإيروسية فى طريقة اشتغاله".

وأدركـــت أنهـــا كانت تعطينى أول وأهم خبراتى الحسية بحب بـــالغ، ما زلت أدين بفضلها وأختبره فى كل فعل للحب مارسته مع أى امرأة غيرها.

الآن عندما استدعى ذكرياتى معها أتأمل صورتى وأنا أحتضن عـــريها وأرى - مـــن موقعى الآن عبر السنوات - بشرتها الحليبية الأخـــاذة وشعرها البنى الذى كانت قد جعدته فى تلك الليلة فأعطاها حســـا غجـــريا مثـــيرا. أرى عينـــيها اللتيـــن تأخذان شكل لوزتين مرســـومتين بعناية ومحددتين بالكحل الذى بقيت آثاره ماثلة.. تحدق بى عشقا فأهيم تائها فى أعماق روحها.

لكـــن فى ذلك الزمن كان عناقى لها يجعلنى أتخلى عن إدراكى لها كحضور.

"عـــندما نعـــانق تلـــك الصـــورة نكف عن مشاهدتها وتفقد هى كينونتها كصورة. وتبدأ حالة من تفتيت الجسد المشتهي: نرى العينين فقط تحدقان فينا. نرى عنقا يضاء بنور مصباح ثم يعود بسرعة إلى

حلكة الليل. نرى بهاء الفخذ، نرى الظل نازلا من السرة إلى الفرج. العناق الجسدى هو أوج الجسد وفقدانه فى نفس الوقت".

* * *

أسرتني ماريا، وجعلت لكل ما استقبله في حياتي معنى مختلفا، حتى الجلوس في الأماكن المعتادة اكتسب، معها، مذاقا جديدا. الإفطار في "أمفتريون" مثلا وأنا أتأمل وجهها الطفولي وشعرها البني المجعد، بينما يظهر البحر من خلفها عبر النافذة.. مذاق الكابتشينو في مطاحن البن البرازيلي، والقهوة المسائية في المقهى الخارجي لفندق "وندسور". ككل ما وقعت عليه عيناى فى صحبتها امتلك طابعا فريدا لم يكن من الممكن استعادته لاحقا مع أى أحد، ربما، حتى مع كريستين.

* * *

أما الوجع الذى شق صدرى وأفقدنى القدرة على النطق فى اليوم الأخير قبل رحيلها النهائى والمفاجئ إلى أثينا فما زال ماثلا. بكاؤها بين يدى أمام الشاطئ، والذى تحول فجأة إلى نشيج ملتاع لطفلة تبكى شيئا تشعر أنها ستفقده إلى الأبد، ما زال يتردد فى عمق أعماقي. ودموعها على وجنتيها أيقونة لا تفارق خيالي، ولم تفارقه

للحظــة. أتذكــرها مستعيدا الإحساس بالبرد القارس الذى أحاط بنا متواطئا.

وبعــد شهور قليلة من رحيل ماريا اكتشفت أنه ليس سوى لعبة محســوبة مــن ألعاب الزمن والمصادفة، وهى الألعاب التى شغلتنى طويلا ولا زالت.

-٨-

ألعـــاب الزمن والصدفة شكلت تفاصيل حياتى كلها، وهى التى أعانتنى على الهروب من طيف كريستين بظهور ماريا التى أنقذتنى من هلاوس وهواجس عديدة. وهى نفس الألعاب التى جعلتنى أستبدل بطيف كريستين طيف ماريا، لكن المفاجأة فى هذه المرة كانت أكبر.

كنت قد بدأت التعايش بشكل نسبى مع فكرة الحياة بدون ماريا. وتجـــرأت علــــى المرور أمام الأماكن التى كانت تمثل ألماً لا يطاق بفعل التهاب الذكريات المحفورة فى أعماق الروح كلما مررت أمام أى مـــنها: المدرســـة اليونانـــي.. راندوبلو.. كازينو النيل وغيرها. وبفضلِ الاكتئاب وعدم الرغبة فى الخروج كنت أقضى أغلب الوقت جالســـا فى البيت، أقرأ ما تيسر، إذا ما كان ذهنى صافيا. أو أجلس مذهـــولا أمـــام شاشة التليفزيون، بلا أى إرادة حقيقية لمشاهدة شيء بعينه. أما أغلب الوقت فأقضيه فى غرفتي. أستمع إلى الموسيقى بلا كلل.. علها تستطيع أن تشفى روحى.

وفى غرفتى تلقيت خبر عودتها مذهولا حين وجدت نادية تفتح الباب وهى ترسم ابتسامة دهشة بلهاء لتعلن لى خبر وجود كريستين فى الصالون!

مـــدت لى يدها وهى ترسم ابتسامة ودودة، وتحدق فىّ دون أن تـــنطق بحرف. وأحسست أن ملامح وجهها الجميلة قد صارت أكثر نضجا، أمسكت يدها وأنا أتعمد أن أضغط عليها قليلا، كأننى أحاول أن أنقـــل لهـــا ما لا أستطيع التعبير عنه قولا. أحتضن كفها الدافيء الـــبض مستعيدا عمرا من المشاعر الذى خلت أنه قد ولى من حياتى إلـــى الأبـــد. اقتربـــت منها لأقبلها، فتلقت قبلتى بوداعة، ولم تنطق بشيء.

وبعدمـــا أحضرت نادية أقداح الشاي، وبدأت أستوعب وجودها مرة أخرى فى الحياة بدأت خيوط الكلام تجمع شتاتها، لكننى بمرور الوقـــت اكتشـــفت أننى الذى أخذت أثرثر بلا انقطاع، إذ إنها كانت شـــاردة، أغلـــب الوقت. أحسست أن روحها أقل توهجاً مما عرفته عنها.

* * *

بدأنـــا نستعيد علاقتنا تدريجيا، وكأننا نحاول تجاوز آثار موت عمـــاد، وإيجاد صياغة جديدة لعلاقة ثنائية لا يوجد فيها مكان لعماد ســـوى كطيف شاحب لذكريات أيام لن نستطيع استعادة رونقها مرة أخـــرى. وأن نحاول إحياء المساحات التى ماتت فى قلبينا أيضا. لم يكـــن من السهل أن أستعيد نفس المشاعر بعد مرورى بتجربة ماريا التى فرضت وجودها كطيف أقارنه بكل ما تفعله كريستين كما كنت علـــى يقين من أنها لا يمكن أن تكون نفس الإنسانة قبل أن تخوض

تجـــربة الرهبنة، حكيت لها عن الدراسة بكلية الحقوق، وعن بعض أســـاتذة الكلـــية وخاصـــة د.الشـــافعي بشـــير الذى غالبا ما تتحول محاضراته فى القانون الدولى إلى بدايات مظاهرة سرعان ما تخرج من المدرج إلى حرم الجامعة أسبوعيا.

وأخبرتـــنى أنهـــا فقدت سنة دراسية وستضطر لإعادة الثانوية العامة.

حدثـــتها باقتضـــاب شـــديد عن تجربتى مع الجماعة، ولم أكن متحمســـا للحديث فى الموضوع. وحكت لى باختصار شديد الطقوس الأولى التى بدأتها فى الدير.

وعـــندما ســـألتها عن السبب الذى قررت من أجله ترك الدير والـــتخلى عن حياتها كراهبة تقلصت ملامح وجهها لوهلة، ثم بدأت تحاول أن تدخل إلى الموضوع وهى مترددة. ثم صمتت مرة أخرى لفترة قبل أن تقول لى فى حسم:

- أحسن ما نتكلمش فى موضوع الدين ده تاني.

- يعنى إيه؟

- يعـــنى أنا مش هاتكلم عن أى حاجة ليها علاقة بالدين تاني.. ويا ريت ما تحاولش تخللينا نتكلم.

- طيب أنا كمان مش ها حكيلك أنا سبت الجماعة ليه!

ابتسمت ولم تعلق بأى شيء.

وبعد فترة صمت أخيرة قلت لها:

- طيـــب مـــش هـــنروح نولـــع شـــمع فـــى مـــار جرجس حتى؟

أغرورقــت عيناها بالدموع وهى تهز رأسها سلبا. وأدركت أن كثيرا من الطقوس المشتركة التى كنا نمارسها معا لن يكون بإمكاننا أن نكــررها مرة أخري. وتذكرت المرة الأخيرة التى ذهبنا فيها إلى "مــار جــرجس" فى "شارع بورسعيد" حيث أوقدنا الشموع من أجل عماد للمرة الأخيرة.

سنفقد هذه التجارب المشتركة الجميلة، كما أننا لن نشاهد طيور الحمــام التى تحلق وتملأ المكان برفيفها وسط الضوء الساطع كلما ســمعنا عن ظهور العذرا فى كنيسة من الكنائس.. سنصاب بالعمى من الآن فصاعدا!

- ٩ -

"مــن أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدا واحدا. إذ ليسا بعد اثنين. بل جسد واحد. فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان..."

لكن الأمر احتاج منا بعض الوقت، لكى نستعيد المساحات التى أظلمت فى أعماق كل منا بفعل ابتعادنا فى الزمن. وحتى ما كان من الطقوس التى اعتدناها قبل ذلك مألوفا بدا لنا غريبا فى تلك المرحلة، كأنــنا نمارســه للمرة الأولى: أوقات القراءة والمذاكرة فى غرفتى تحــت رقابــة ناديــة، أو عند كريستين فى البيت تحت رقابة طنط جورجيــت. وحتى فى كل الأماكن التى كنا قد اعتدنا أن نذهب إليها قبل ذلك. كنا نعرف أن سبب ذلك هو وجود عماد الدائم معنا فى تلك الأيــام. حتى "مولد الشيخ حسنين"، كان فى حضوره هذه المرة شيئا مخــتلفا رغــم أن المشهد كله كان مألوفا: نهبط من التاكسى بجوار مبــنى مديــرية الأمــن على شارع البحر، ثم نخترق زحام شارع العباســى الذى يمنع فيه سير العربات فى يوم الليلة الكبيرة للمولد، وكلمــا اقتربنا من "ميدان الشيخ حسنين" زاد الزحام ورائحة العطن والعــرق، بيــنما تظهــر فــى الحوارى الضيقة، على يمين ويسار

الشـــارع، الخـــيام التى أقامها الزوار القادمون من القرى والنجوع المحـــيطة بالمنصـــورة، أو من بعض مدن مصر البعيدة، كما أغلب الموالد التى تجذب زوار أولياء الله أينما كانوا.

وعلـــى محيط الميدان تجاورت سرادقات صغيرة تضم حلقات الذكـــر وجلســـات تعاطى الحشيش، وعلى ناصية "شارع السلخانة" تـــتمركز عربة مغطاة بالصفيح كأنها غرفة تعلو أربعة إطارات ولها باب يصعد الأطفال إليها بسلم خشبى صغير، إذ إنها تستخدم كمسرح صـــغير لألعاب السحر والأراجوز، تغلفها من الخارج رسوم بدائية لهـــا ألـــوان صـــارخة. بيـــنما يتوزع المئات من الشباب والكهول والســـيدات فـــى أرجـــاء الســـاحة حول الميدان أمام ألعاب النيشان المنتشـــرة فى كل مكان أو بعض الألعاب البدائية مثل ضرب علب الصفيح الأسطوانية الصغيرة المتراصة فى كومة منسقة بشكل معين بكرة صغيرة. أو بعض ألعاب القوة، بدفع الأثقال على قضيب حديد ينتهى بالبمب. ويعلو الصخب والضجيج أرجاء الميدان.

وبين موجات البشر التى تحيط بنا من كل اتجاه حاولنا أن نصل إلـــى جـــامع الشـــيخ حسنين الذى يقع على يمين الميدان فور انتهاء شـــارع العباسي. ووصلنا إلى بهو المسجد أخيرا فيما يشبه المعجزة بعـــد أن غطـــت كريستين وجهها بشال كانت قد أحضرته احتياطيا. وطفـــنا حول المقام الذى يقع إلى يسار مدخل الجامع، وهى تتقدمنى بيـــنما ألتصـــق بهـــا وأنا أمسك بكتفيها خوفا من أن نفقد بعضنا فى الزحام، وخشية المتربصين من هواة الالتصاق بمؤخرات الفتيات فى الموالـــد. وخرجنا ونحن نشعر بالاختناق بسبب الإحساس بالحرارة

ورائحة العرق النفاذة الخانقة التى تفوح من الأجساد اللانهائية المحيطة بنا، ومن العطن الذى يغلف جو المكان.

أما آخر الطقوس المشتركة القديمة الذى مارسناه قبل أن نقرر أن نفتح صفحة جديدة نمارس فيها طقوسا مختلفة فكان زيارة أخيرة إلى "مار جرجس" تحت إلحاح "طنط جورجيت" التى أبدت استياءها من توقف كريستين عن الذهاب إلى الكنيسة.

ولا أعرف ما الذى حدث، لكن شيئا ما، له طبيعة مختلفة، وحسية، بدأ بيننا منذ دخولنا من باب الكنيسة. كان لملمس أناملها طابع حسى حميم. وكنت أراقب يديها بشغف منذ رأيتها أخيرا، أتأمل أناملها النحيفة الرقيقة البضة التى تنتهى بأظافر أنيقة مقببة قليلا ومعتنى بها. ولعل هذا ما جعل أيدينا تشتبك طوال وجودنا هناك، وأنا أصيخ السمع لتأوهات روحها المختلطة بالترانيم، بينما النظرات الحانية المطلة من الأيقونات تبدو لى إشارة لا راد لها.

فى الوكر بدأنا طقوسنا المشتركة الجديدة. أعطانى مهند- زميلى الأردنى الذى استأجر شقة فاخرة فى طلخا- نسخة من مفتاح شقته، وهو ما أتاح لنا أن نذهب إليها يوميا بالنهار ومساء الخميس.

.. ولأنت جوارى ضاجعة/ وأنا بجوارك، مرتفق/ وحديثك يغزله مرح/ والوجه.. حديث متسق/ ترخين جفونا/ أغرقها سحر/ قطفا فيها الغرق/ وشبابك حان جبلى/ أرز وغدير ينبثق/ ونبيذ ذهبى وحدى/ مصطبح منه ومغتبق/ وتغوص بقلبى نشوته/ تدفعنى فيك.. فنلتصق/ وأمد يدين معربدتين/ فثوبك فى كفى../ مزق/ وذراعك يلتف/ ونهر من أقصى الغابة يندفق/ وأضمك/ شفة فى

شفة/ فيغيب الكون وينطبق/ وتموت النار فنرقبها/ بجفون حار بها الأرق/ خجلــى!/ وشــفاهك ذائـــبة/ وثمارك نشوى تندلق/ ونعود نــثرثر/ كبحــيرات هادئة/ غطاها الورق/ ويمر الوقت فلا ندرى/ ويقــيم محافله الشفق/ وتدق الساعة معلنة. فيهب بنا صحو قلق/ ويحيــن وداع وقــتى/ وأراه كحلم ينسحق/ يرتد الصمت لموضعه/ ويعــود إلــى الأذن الحلــق/ ونمد الأيدى/ راغمة/ نتشاكى العتب/ وتنزلق!/ وأحس بشيء فى صدرى/ شيء كالفرحة يحترق![1]

أقــرأ لهـــا من شعر أمل دنقل الذى أغرمنا به، مدهوشين من قدرته على وصف حالتنا شعرا!

تلك كانت أيامنا الجميلة.. نقرأ ونثرثر، ونستعيد حديثا بدأناه فى طوافنا اليومى بممرات الجامعة الممتلئة بالأشجار. الأحاديث الحميمة تبدأ بعد أن نتجاوز كلية الزراعة، نطوف حولها حتى نصل إلى كلية العلـــوم مبتعديـــن عـــن الزحام الذى يبلغ ذروته أمام كليتى الحقوق والتجارة.

لكـــن الحســـية الـــتى بدأت تغلف إحساسى بها كلما تكلمت، أو نظـــرت إلـــى بعينـــيها الزرقاوين تجعلنى أحاول اختلاق أى فرصة للاحتكاك بها أو لمس جسدها أو إمساك يديها، وغالباً ما ينتهى الأمر بقرار الذهاب فوراً إلى الوكر.

.. عاريـــة- إلا مـــن الحـــب- تـــروح وتجيء/ يأتى غناؤها بصـــوتها الدافـــيء/ وهى ترش الماء فى الحمام/ أو.. جالسة على

---

(١) من قصيدة شيء يحترق من ديوان مقتل القمر لأمل دنقل.

الأريكة الأثيرة/ وهى تسوى شعرها/ أو.. وهى عند النار/ تعد فيها قهوة الإفطار أو تمنح الرونق للأشياء/ فى لمستها الخبيرة..[٢]

جعلـــنا مـــن هـــذه الشـــقة، ومن مساحة الغرفة الصغيرة التى يتوســـطهـ فـــراش وتحيط به الكتب، مسرحا نختبر فيها الحرية كما نشـــتهى أن تكون. خبراتى الجنسية التى تلقيتها من ماريا لقنتها إياها بحـــب كامل. أقبل جسدها بصبر عاشق حتى أنامل القدمين. وندخل معا إلى عالم حسى لا يخلو من صوفية.

كـــان فـــى علاقتنا، بكل عوالمها الروحية والمادية، ما يجعلنا نشعر بأننا نفعل شيئا خطيرا وحقيقيا. ويجعلها تأخذ من كتاب "قصة حـــب" فقـــرات تحفظها عن ظهر قلب، وترددها بشغف، وتملأ بها هوامش كتب الدراسة.

(٢) من قصيدة فعل من قصة حب من ديوان تعليق على ما حدث لأمل دنقل.

-١٠-

لا أعــرف مـــا الذى حدث لى فجأة.. أعرف أننى غيور، لكن الأمر أخذ شكلا مرضيا بعد أن بدأت بيننا طقوس الحسية، وأصبحت ضحكاتها لأى صديق من أصدقائنا فى الجامعة كأنها طعنات حقيقية فـــى قلبي. صرت أتابع ما تفعله فى الأوقات التى لا نكون فيها معا بشـــكل صـــارم. وانتقلـــت أفكارى إليها بالتدريج، وبدأت هى أيضا تتوتر.

لكن الانفجار حدث بعد عودتها من زيارة قامت بها لابنة خالتها كاترين فى القاهرة. حكت لى أنها خرجت بصحبة كاترين لتيسر لها لقاءها مع صديقها، ففوجئت بأنه حضر بصحبة صديق من أصدقائه، وأنها اضطرت لأن تتحدث معه طول الوقت بسبب رغبة كاترين فى الانفراد بصديقها.

جـــن جنونـــي. وضـــغطت على أعصابى حتى أكبح شياطين الغضـــب الـــتى كانت تتراقص حولى وتقربنى من الجنون. ولم أرد علـــيها طوال الطريق من أمام كلية الزراعة حيث كنا نجلس، وحتى بوابـــة الجامعة الرئيسية. ولم أرد عليها سلامها أيضا بعد أن ركبت التاكسى بمفردها.

أغلقــت الهــاتف فى وجهها مرتين متعاقبتين بمجرد أن سمعت صــوتها. وفى المرة الثالثة لم تعطنى الفرصة إذ إنها بدأت المكالمة بموعظــة عــن الشعارات التى أطلقها عن الثقة المتبادلة والمشاعر العظيمة وتخلف الرجل الشرقى.

أمسكت بالهاتف ورفعته من أعلى المنضدة الصغيرة المخصصة له وألقيت به بعنف باتجاه الحائط. ثم خرجت من البيت لا ألوى على شيء.

ولــثلاثة شــهور كاملة، لم يكلم أحدنا الآخر كلمة واحدة. كنت أتصــبر باجترار ذكرياتى مع ماريا، وأنا أردد لنفسى أننى لا يمكن أن أرتــبط إلا بفتاة أجنبية فى المستقبل. فقد كنت أثق فى ماريا ثقة عمــياء رغــم أنــنى أعرف أنها ليست عذراء.. أما كريستين، فقد شــعرت آنــذاك أنها مثل كل الفتيات المصريات اللائى يجعلن من "اللوع" قانونا فى علاقاتهن.

ولــم يــنه الخــلاف إلا المحــاولات الدءوبة التى بذلتها نادية للإصــلاح بيننا. وعندما تلقيت منها رسالة تقول لى بأننى أخذت ما أريــد وبالتالى لم أعد فى حاجة إليها، شعرت بالإهانة، لأننى لم أكن أريد أن أعود إليها بدعوى الشفقة. كنت أعرف فى أعماقى أننى متيم بهــا، وأننى لن أستطيع أن أعيش بدونها، لكننى لم أستطع التخلص من إرث التراث الشرقى الذى يجعل من هلاوس الخيانة أشباحا ماثلة للــرجل فــى علاقته بالمرأة التى تفقد من أجله بكارتها. لكنها كانت خــبرة ضــرورية لعلاقتــنا التى أثبتت بعد ذلك قدرتها على تجاوز الكثير من المحن.

وبحلـــول الخـــريف الذى أعلن بدء عام الدراسة الأخير لى فى كلية الحقوق، وعامها الثانى بكلية الآداب، كانت قد تخلت عن خجلها مــن الســير أمــامى عارية طوال فترة وجودنا معا فى الوكر. تعد القهوة وهى لا ترتدى شيئا سوى "الكيلوت" الكحلى الذى كنت أفضله علـــى غيره، أتأمل جسدها الرشيق البض، وظهرها الناعم المقسوم بـــالأخدود الرقـــيق علـــى سلسلة الظهر إلى لوحتين مخمليتين بلون بشرتها الناعمة بدرجة هينة من لون القمح.

أقبل رقبتها بينما تلفح وجهى خصلات من شعرها الذهبى الذى عقصـــته فى ضفيرة ثبتتها بأعلى رأسها. أحتضنها لتلتقى كفاى فوق ســرتها أســفل بطنها الهضيم. تدفع ردفيها دفعا هينا باتجاهى وهى تسألنى بنبرة لا تخلو مما يشبه العتاب:

– والقهوة؟!

أســبقها إلـــى الغـــرفة، لأضع فى جهاز الكاسيت شريطا مما نفضـــله: "فـــرانك ســـيناترا" فـــى الأغلـــب you are my under my skin (أنـــت قـــدري) أو distney (تحـــت جلـــدي)، وأحيانا نسمع منير: "شبابيك" هو ألبومى المفضل آنـــذاك، وهـــى تحب الأغنية، لكنها كانت مغرمة بـــعبدالحليم حافظ الـــذى لـــم أكن أحبه كثيرا. يوم عيد ميلاده يتحول إلى جحيم لأنـها تستيقظ فى ذلك اليوم فى الصباح الباكر وتبدأ فى تسجيل كل أغانيه التى تذاع فى الراديو أو التليفزيون رغم الأسطوانات المتراكمة لديها لكـــل ما غناه حياً أو مسجلاً. وكثيرا ما كنا نجعل من فريق ABBA حلا وسطا نموذجيا لأننا نحبه بنفس القدر: Dancing Queen

أو Take a chance on me أو Does your mother know وطبعا chequitita.

تضـــع القهوة أمامي؛ وتلمس بإبهامها "وش" القهوة بلونه البنى القــاتم، وملمســـه الثخين، وتمد يدها لأتذوق القهوة من طرف يدها. نتخـــيل بعدهـــا ســـيناريو لحكاية نمارس بها الجنس، وننفذه حرفيا، بنشوة بالغة.

وهكـــذا أحسســـنا أن الممرات الضيقة التى بدت لنا فيها الحياة خـــلال الســـنوات الأخيرة صارت أكثر اتساعا. أصبحت رحبة بما يكفى لآفاق علاقتنا هذه التى كانت تظللها ستائر الرومانسية بالتتابع.

القسم الثالث

فصول من سيرة الخوف

أمـــى هى التى استطاعت أن تشعر بوجودي. هكذا كانت دائما، تحلم بالأشياء قبل وقوعها. ينقبض قلبها قبل أن تقع الأحداث الجسام. وكثـــيرا مـــا كانت تقرر السفر إلى أسيوط لتزور عائلة من عائلات أهلهـــا، وتصـــر على رؤية شخص بعينه، وغالبا ما كنا نسمع خبر موته بعد أيام!

قالـــت لهم، وهى تبكي، إننى عدت من السفر! وأنهت مكالمتها الهاتفـــية مـــع جـــدى فؤاد وخالى عماد- الذى سميت على اسمه- وخالتى تريزا بجملة رددتها بثقة شديدة: ما هوا نايم جوه فى أودته.. تعالوا شوفوه..

وهـــم جمـــيعا وجـــدوا فيما تقول دليلا نهائيا قاطعا على صفة الجنون التى وسموها بها منذ رحيلي. كانت آخر من شاهدته آنذاك، وأول مـــن رأيـــته بعد عودتي. لكن العينين الخضراوين النضرتين اللامعتين قد ذبلتا تماما، حتى لونهما، بدا لى رماديا، أما الشعر البنى الـــناعم المسترسل، فلا أرى منه الآن سوى خصلات شديدة البياض تتسلل من خلف وشاحها الأبيض.

هـــذه المرة لن يكون بإمكانها أن تراني، لكنها تشعر بي، متكأة على بصيرتها، تنادى عليّ وتبكى بالدموع، فتخلق فيمن يحيطون بها

مــزيجا مشاعريا غامضا مكونا من الرثاء والشفقة المغلفة بالدهشة. تســتمد دهشتهم أصولها من قناعتهم بأنها بكت علي- بعد رحيلي- حــتى جفــت دموعها، بينما هم يشاهدون التجاعيد التى حفرتها فى جبينها ووجهها أزاميل الزمن، وقد فاضت بدموعها.

استطاعت أمى أن تشعر بوجودي!

صــرخت بحرقة، وهى تقسم لهم بالمسيح الحى على أن روحى ترف حولها، وسبتهم- على غير ما أعرفه عنها- بأقبح الشتائم، دينا وملــة، عندما ألحوا عليها فى زيارة الدكتور "شاكر عارف" بدعوى تلف أعصابها.

لــو أن هــناك عــدلاً فى هذا العالم لصعقتنى الآن قوة معجزة تكشــف لأمى حدة بصيرتها، وهذر العميان الذين وصفوها بالجنون، ولأتــيح لى أن أحتضنها مستكينا، لعلى أحقق ما عدت من أجله مرة أخــرى إلــى هــذا الزمن: أن أتغلب على هذا الخوف الذى ينهش روحى.

الخــوف الــذى ســيطر على وجودى الأول بلا سبب واضح، الخــوف من المجهول، ومن سخط السماء، ومن الناس، والشياطين الذين يتربصون بى معمى عن رؤيتهم.

كان الخوف المرضى قد تسلل إلى روحى وتمكن منها، لهذا لم تجد معى كل الأدوية التى تسابق الأطباء فى وصفها، بل لعلها كانت السموم التى عجلت برحيلى بعد أن تخثر قلبى بفعلها.

لم تكن لدى طاقة على مواجهة ذلك الخوف. ذهبت إلى الكنيسة بانــتظام، وحفظــت الصلوات كلها، ورددتها مع القساوسة بإخلاص

تـــام. وفى القداس كان صوتى يتهدج مع الشعب متوسلا ومستغيثا: نسبحك.. نباركك.. نشكرك يا رب.

أذهــــب إلى القداس على أمل التطهر وأنا أردد ما قاله القس فى واحـــدة مـــن عظاتـــه مستشــــهدا بالعهد الجديد: **تعالوا إلى يا جميع المتعبيـــن وثقـــيلى الأحمــــال وأنا أريحكم.. فقط تعالوا.** أستمع إلى الموعظــــة بكل جوارحى عازم النية على التطهر، مغلقا عقلى على الأســئلة حــتى لايتســـرب الشيطان فى إحداها. منتظرا، بعد نهاية الصــــلوات أن يأتى أبونا ليرشني، مع الشعب، بالماء المقدس وحتى أسمع الكلمة التى أتمنى أن يكون فيها خلاصى من عذابي: **انصرفوا بسلام.. سلام الرب معكم.**

وقـــرأت مـــن الكـــتاب المقدس مؤمنا على قول الرب: "**طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات، طوبى للحزانى، لأنهم يـــتعزون، طوبــــى للودعـــاء لأنهـــم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطـــاش إلـــى الـــبر لأنهـــم يشـــبعون، طوبـــى للرحماء لأنهم يرحمون...**"

وكنـــت هـــؤلاء جمـــيعا، فلم أزدد إلا خوفا.. حالة غامضة لا أســـتطيع معهـــا أن أغمض عينى خوفا من أن يداهمنى الموت. لا أستطيع أن أغلق باب الغرفة، أو التواجد فى أى مكان مغلق. تنقض المخاوف على فورا وأتوهم السقف فى طريقه للانهيار على رأسي. فتتســـارع دقات قلبي، ويعلو صوت تنفسي، وتتقلص بطني. أحاول استنشـــاق الهواء مدافعا الإحساس المباغت بأن روحى تسحب مني، ويتقطر العرق باردا وغزيرا على جبينى.

حـــتى الـــنوم أصبح مستحيلا بسبب الهاجس بأننى إذا نمت فلن أســـتيقظ، ولهـــذا كنت أضيء الغرفة وأرفع صوت الراديو على أى شـــيء، أستمع إلى ثرثرات ووشيش لا يعنى لى شيئا التماسا للونس الـــذى أحـــاول أن أتغلب به على مخاوفي. وبعد أن يصاب جسدى بالوهن من شدة التوتر يخطفنى نوم متقطع، حتى يتسلل ضوء النهار مـــن خصـــاص الشباك الذى يواجه السرير أمامى مصحوبا بزقزقة العصافير فأنتفض. أفتحه على اتساعه، وأستنشق الهواء بعمق شاكرا الرب على أننى ما زلت أحيا.

كنـــت أتمـــنى أن أخبر رامى عن مخاوفى هذه، لكنه فى نفس الوقـــت كـــان أبعد من يمكن أن أمتلك القدرة على الحديث معه فى شيء كهذا. فقد كانت صداقتنا تقوم على الندية. وكانت الشفقة واحدة من المشاعر التى يحتقرها رامي، ويأخذ منها موقفا حادا، ويبدو رد فعلـــه عنيفا إلى حد القسوة إذا فاجأه حدث ما، يجعل من الشفقة رد الفعل الطبيعى له.

فـــى الفـــترة التى وضعت فيها قدمى فى جبيرة الجبس بعد أن تعـــرض مفصـــل القدم للكسر كان يصر على ألا يقوم أى من أفراد الشـــلة بمســـاعدتي، بل وأحيانا، وعلى سبيل الدعابة السخيفة، كان يتعمد الارتطام بقدمى المكسورة.

وحتى علاقتنا بـــكريستين تسللت إليها هذه الندية، لكنها حسمت المسألة مبكرا بميلها إلى رامى وإعلانها أنها تحبه تجنبا للحساسيات الـــتى قـــد تســـببها أية التباسات بسبب علاقته بها، وبسبب علاقتنا المركبة أنا وهو.

الوحيدة التى كنت أنسى حالتى المرضية هذه أثناء وجودها هى "طـنط تريزا".. خالتي. جمال نموذجي، كما هو معروف عن فتيات وسيدات المنصورة: شعر بنى فاتح، ناعم، تتركه منسدلا على كتفيها فى أغلب الأحيان، وعينان يمتزج فيهما الأخضر بلون العسل. وجه مستدير ملامحه دقيقة ومنمقة. لكنها تقريبا فقدت اتزانها بعد موت حسن النبراوى الذى توفى فى حادث مفاجيء. كنا جميعا نعرف أنه حب حياتها الذى احترقت بلهيبه طول حياتها. لكنهما لم يستطيعا الزواج بسبب اختلاف الدين.

تزوجت من عمى سامى ولم تنجب منه أطفالا، وظلت تشكو منه طول الوقت. أما حسن النبراوى فكان قد اتخذ قراره بألا يتزوج بأى امرأة غيرها، ومات بالفعل وهو عازب.. وهذا ما أحرق قلبها كمدا. فقدت روحها المرحة وظلت منقطعة عن الكلام لعدة أسابيع عزفت فيها أن ترى أى مخلوق. أغلقت باب غرفتها ورفضت أن تفتحه لأى أحد. عمى سامى كان يعرف جيدا مزاجها السوداوي، ولم يكرر محاولته فى إخراجها مما تعانيه خوفا من تكرارها لفاصل الردح الذى شنفت به أذنيه، وتجنبا لمقارنة علنية بين المرحوم وبينه، وحاول أن يحافظ على ما تبقى من ماء وجهه بتجاهل الأمر تماما كأنه لا يعنيه.

كانت تحكى لي، بشغف، قصة علاقتها بحسن النبراوي، وكيف أنها أعجبت به بسبب غموضه وهدوئه الشديد فى شبابه، بالإضافة إلى وسامته وهى تقرب صورته إلى خيالى قائلة: كان شبه "عمر الشريف" بس أشقر ووشه أحمر. ثم ترسم ابتسامتها الجميلة وهى

تعــود بذاكرتها إلى زمن آخر وتقول: كنت بأهرب من المدرسة يوم كل أسبوع عشان نروح السينما مع بعض.

.. تعرف يا واد يا عماد، لو رجع بيا الزمن تاني أتجوزه واللي يحصل يحصل. دانا جنتي بيلبسها عفريت لو شفته لغاية دلوقت. ما هو كان عنده استعداد نتجوز، وكل واحد يبقى على دينه.. وأنا كمان كنــت موافقة إن الأولاد يبقوا مسلمين.. بس منهم لله بقى خيلاني.. جوزوني المنيل على عينه سامي...

وعــندما اشتد عليّ المرض أسرعت هي إلى الكنيسة، وعادت لي بلفافة صغيرة لمحت على أحد جوانبها رسما للصليب بخط اليد، وضعته أسفل الوسادة التي أنام عليها وهي تقول: خليه تحت المخدة علــى طول، أبونا عملهولك مخصوص. ما تخافش يا دود، والمسيح الحــي حــتخف وتــبقى عال. شد حيلك عشان تيجي معايا القداس الأسبوع الجاي.

لكن روحي كانت قد استسلمت لرحلتها إلى زمن آخر.

الآن أســتطيع أن أسأل نفسي عن أسباب هذا الخوف، هل لأن طفولــتي كانت مرضا كلها؟ ربما. فبسبب هذا المرض- من الحمى الروماتيزمــية إلــى الالــتهاب الــرئوي إلــى ضربات القلب غير المنتظمة- حرصت أمي على أن أكون بجوارها طول الوقت. وحتى ســن العاشرة كانت هناك قائمة طويلة من الممنوعات: لا لعب، ولا كــرة قدم في الشارع، ولا أصحاب، ولا شيء على الإطلاق، سوى زيارات الكنيسة.

ولم ينقذنى سوى إلحاح "طنط جورجيت" على أمى أن تسمح لى باصطحاب كريستين ابنتها فى بعض المشاوير التى قد تمتد أحيانا إلى "شارع بنك مصر" و"السكة الجديدة" أو "ميت حضر"، ومن هنا بدأت علاقتى بالشارع. وبالخوف أيضا.

اكتشفت أننى قلق وخائف على طول الخط، أخاف أن تتعرض كريستين لأذى لا أستطيع دفعه عنها، أو أن يوجه لى أحد المسلمين إهانة لا أستطيع ردها. بعضهم- وبينهم جلال وعلى قبل أن نصبح أصدقاء- كانوا يرددون هتافا غامضا كلما مررت من أمامهم: أبو عضمة زرقا. ولم أكن أفهم معناه، وعندما سألت أمى سبتهم وأهاليهم الذين لم يحسنوا تربيتهم وأوصتنى بألا ألتفت إلى تفاهاتهم، وأن أكثر من الصلاة.

ولم يكن أمامى إلا أن أقرأ من الإنجيل لأثبت قلبي: إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضنى قبلكم. لو كنتم من العالم لكان العالم يحسب خاصته(..) لكن لكى تتم الكلمة المكتوبة فى ناموسهم أنهم أبغضونى بلا سبب.

صافرات الرهبة!

أتـــأمل هذه الذكريات فتبدو لى هشة وبسيطة، هشاشة مخاوفى الـــتى عـــدت- فقـــط- من أجل القضاء عليها. رحلتى فى الزمن، جعلتنـــي، بـــلا شك، أكثر قوة وقدرة على رؤية مخاوفى فى حجمها الحقيقـــي. ولعلـــنى لو عدت لذلك الزمن القديم لكررت الأمر بنفس تفاصيله، وبكل تلك المخاوف التى عشتها. ولهذا لم يكن بإمكانى أن أكمل سفرى عبر الزمن إلا بعد العودة لتصفية حسابى مع الخوف.

تقديـــر مـــبالغ فـــيه لألم افتراضى غير محتمل، ربما لا يكون لوجوده حقيقة سوى فى خيال الواهم. وكلما كانت القدرة على احتمال هـــذا الألـــم المفترض أقل، زادت قوة سيطرة هذا الإحساس. وهكذا كانـــت حياتى تسير فى دائرة الرهبة والوجل ثم الهلع، تضغط علي، فتضـــيق الدائـــرة الـــتى تحكم من خناق صفة الجبن حولى والتى لم أعرف طريقا للهروب منها سوى بالموت!

وفى وجودي، الآن وهنا، أولى محاولاتى الجادة لمواجهة جبنى ومخاوفـــي، ولكن هل أستطيع أن أغير صورتى لدى كل من عرفوا أن موتـــى لم يكن سوى هروب جبان. جبن من مواجهة الحياة، بكل آلامهـــا الافتراضية، وكل الأذى المتوهم من الآخرين، ومن شرور نفســـى الأمارة بالسوء. من الخطية، ومن قسوة أبى الصارمة، ومن

الأصــحاب الأشــرار، ومن الاعتراف بمشاعرى لمن أحببت، ومن الجهر بدينى بين المسلمين.. خوف قاتل ومهين.

رامـــى كان يكره الإحساس بالخوف، ويواجهه بأن يرمى نفسه برعونة فى قلب كل ما قد يثير مخاوفه.

أخــبرته يومـــا عـــن الرهبة التى أشعر بها عندما أستمع إلى صافرات القطارات المارة فوق كوبرى طلخا، والتى كنا نسمعها فى توريل بشكل واضح، خاصة فى أعماق الليل.

فى صباح اليوم التالى استدرجنى إلى مزلقان القطار القديم الذى كـــان يدور أعلى التل الترابى المحيط بمدرسة "الملك الكامل". انتظر حتى سمع هدير القطار قادما من صوب مصنع اللبن، ثم جذبنى بقوة صاعدا على التل باتجاه القضبان. حاولت التملص منه دون جدوى. وشعرت بألم مفاجئ فى قلبى وأنا أرى القطار المتهالك فى مواجهتنا يصـــدر نفيره المتقطع بانتظام. وفوجئت برامى يدفعنى على وجهى بيـــن القضبان ويلقى بنفسه فوقي، وهو ما أنقذنا من الارتطام بهيكل القطـــار. مـــرت تلـــك اللحظات وكأنها ساعات، أصاب أذنى طنين صـــاعق وأنـــا أستمع إلى هدير عجلات القطار الحديدية على يميننا ويسارنا وكأنها دوى صراخ الشعب قبل قيام المسيح!

الـــنداهة.. كـــان اسمها كفيلا بتوليد مزيج من السحر والإثارة والخـــوف العميق لدي، وربما لدينا جميعا، خاصة وأن هذا الانطباع يســـتمر معـــنا مـــنذ الطفولة التى تترسخ أحاسيسها البدائية، وتنقش الانطـــباعات على الذاكرة مدى الحياة. تماما مثل فكرة الدين، حيث تكـــون الطفولـــة، بخـــيالاتها الممتدة، والرعب من المجهول البعيد

الغـــامض بيئة خصبة مثالية لنموها، ونقشها فى جدران الذاكرة بلا أسئلة ولا علامات استفهام.

الـــنداهة.. تلـــك المخلوقة القادمة من أعماق البحر، ومن قلب الأســـطورة، والتى بفعل ترهيب أمهاتنا لنا بها، تنتقل إلى سطح مياه النـــيل أمامـــنا حقيقة واقعة. رأيتها بشعرها الذهبى المتجعد المنسدل علـــى كتفـــيها وحتى أسفل خصرها الذى تنتهى عنده حدود تكوينها البشـــرى ليبدأ نصفها الذى يأخذ هيئة الجزء السفلى لسمكة عملاقة. كانـــت تـــنظر باتجاهـــي، وهى ترسم ابتسامتها الساحرة، وتشع من عينـــيها نظـــرة جذابـــة لا تخلو من براءة. ولكنها قبل أن تعود إلى أعمـــاق المـــياه ستنادى على اسمى مرارا، ثم تستبدل نظرة البراءة بأخـــرى مخيفة تلتمع فيها العينان المحدقتان، بينما ينخلع قلبى وأبدأ فـــى صعود التل الحجرى المؤدى إلى الطريق على الكورنيش، من حيث كنا نقف أسفل كوبرى القطار لنصطاد السمك. ولم أكن وحدي، فقـــد رآهـــا جـــلال أيضا وتسابق معى فى الركض هربا من غواية النداهة!

ومن خلفنا انطلق سباب رامى متلاحقا، وعندما وصلنا إلى سور الكورنـــيش الحديدى التفتنا إليه، فوجدناه يخلع قميصه والحذاء، قبل أن يلقـــى بنفســـه إلى مياه النيل عائما حتى الهيكل الحديدى المضلع الذى تستقر فوقه عمدان الكوبرى الضخمة، ثم استكمل السباحة عائدا حتى وصل إلى الشاطئ لاهثا وخرج ليلقى بنفسه على الأرض وهو ينظر إلينا باستخفاف.

هكــذا كــان رامــى دائما.. يختار الاتجاه الذى لا يتوقعه أحد، عكــس الطرق التى نسلكها نحن. حتى علاقته بــكريستين ثم زواجه منها- وهو ما لم أشهده فى حياتى الأولي- لم تكن سوى إحدى نتائج طريقــته فــى التفكير بأن يحوم حول الخطر أو يلقى بنفسه فيه.. أيا كانت النتائج!

لكــن أحدا لم يتفوق على رامى سوى حودة الذى كنا ننظر إليه جميعا باعتباره فارسا نبيلا، مبهورين باحترافه لكل ما يقوم به. ففى مــباريات الكرة الشراب التى كانت تجرى عصر كل يوم فى ميدان فــريد المصــري، كــان هو الهداف الذى يستطيع بمهارة نادرة أن يلصق الكرة تحت قدميه، كأنه ساحر، يستعرض مهاراته فى ترقيص فــريق كــامل قــبل إحراز الهدف. وهو صائد العصافير، والحمام أحــيانا، بالنــبال، وليس بالبنادق "الرش" كما كنا نفعل. كانت ضربة النــبلة تســقط الطــير، وقد انفصلت رأسه عن جسده من شدتها. لم يخطئ ضربته ولو رمية واحدة!

وبصلابة آسرة، وثقة بالنفس، كان قادرا على التصدى لبلطجية "كفــر البدماص"، يحاول أولا أن يرهبهم بطريقته الحادة والعنيفة فى الكــلام معــتمدا على الكاريزما الخاصة التى يتمتع بها، وكثيرا ما نجحت هذه الطريقة فى إنهاء المشادة قبل أن تتحول إلى معركة.

أمــا إذا أحــس أن طريقته لم تحقق له ما يريد، فيختار أضخم شــخص فــى مجموعــة الكفر، ثم يباغته بلكمة قوية يضع فيها كل تركــيزه، فــإذا لم يقع، يسرع فى استكمال اللكمة الأولى بمجموعة أخــرى من اللكمات المتلاحقة، وهو يلف حول خصمه برشاقة حتى

لايتمكـــن مـــنه، ثم يوجه له، أخيرا، ضربة توقعه أرضا، وغالبا ما تكون بقدمه الموجهة إلى خصيتى الخصم المشتت بفعل حركة حودة المستمرة وفى اتجاهات متناقضة.

وحـــتى بلطجية توريل، أو أى من سكان الحي، كان قادرا على مواجهـــتهم وحده. ومنها تلك المرة التى خرجت فيها من نافذة البيت المطلة على الميدان على صوت صرخات لمجموعة من الشباب أمام مســـجد فـــريد المصري، وعندما دققت نظرى وجدت حودة يمسك بـــكـــرباج سودانى طويل وينهال به ضربا على كل من يطوله منهم حتى تفرقوا أمامه راكضين.

كـــان حودة قد لمحهم وهم يتحرشون ببعض فتيات الحي، وهم ســـكارى أو مســـاطيل. فأسرع إلى بيته أمام تفتيش الري، وعاد بعد دقـــائق وهـــو يحمل الكرباج. وكنا جميعا نعرف أنه لابد وقد أخفى مطـــواة القرن غزال فى جيبه كالعادة. توجه إليهم صامتا. لم ينطق بحـــرف. توجـــه إلـــى أكثر الواقفين صخبا ثم هوى بالكرباج على وجهـــه، ثـــم تراجع خطوتين إلى الخلف قبل أن ينهال على الواقفين جمـــيعا بضـــربات متلاحقة سريعة بالكرباج مستغلا الارتباك الذى تسبب بمباغتته لهم.

ولأســـبوع كامل ظل يأتى إلى نفس المكان ليلا ويجلس بمفرده موجهـــا رســـالة تحد لهم، وتأكيدا على قدرته على تنفيذ تهديده الذى وجهـــه لهم صارخا وهم يركضون أمامه:.. لو شفت أى خول منكم هنا تاني.. هاعلقه على باب الجامع.

رامـــى كـــان يعتـــبره مثله الأعلى، حتى عندما عرفنا أنه قطع شرايينه ذات مرة فى محاولة لإرهاب والده بعد مشادة نشبت بينهما.
كان رامى يؤكد لنا بحماس أنه لن يموت.. ده بس بيلاعب الموت.. من بعيد لبعيد!

أمـــا أنـــا فقد خشيت من كل شيء.. حتى تلقفنى الموت ضحية طيعة.. هينة.

رؤى الطيف الأخير!

المشـــكلة الـــتى تواجهـــنى الآن هى تحديد النقطة الزمنية التى أتحـــرك فـــيها.. فعندما أتذكر ماضىّ الذى كان قبل موتي، فهذا هو الماضــــي. أمـــا حياتى فيما بعد ذلك خلال السفر الزمنى إلى ما بعد المستقبل فيمكننى أيضا أن أتذكرها، كأنها تنتمى إلى الماضي، رغم أنهـــا- زمنيا- تنتمى إلى المستقبل، حتى بالنسبة للحظة الراهنة التى أبث منها هذه الأفكار.

كنـــت أعـــرف أن السفر عبر الزمن خروج عن حدود المكان، فليس فارق المواقيت سوى حدود الجغرافيا. لكننى الآن أواجه مأزقا يمثله وجودى الراهن هنا، رغم أننى أنتمى لزمن مختلف!

كأن الزمن ليس سوى تكثف الواقع إلى سحابة الضباب المعلقة فـــى سقف الذاكرة، وما يتبخر منها يصبح عدما خارج الزمن. ولهذا ظل "يسوع" فى خيالى حيا لا يتجاوز عمره منتصف الثلاثينات على أقصـــى تقدير، موجود دائما، فى الكنيسة، وخارجها، فى الأيقونات والتماثيل، مصلوبا فى أعماقى رغم أننى عندما بدأت رحلتى خارج حدود الزمن كان عمره قد تجاوز ١٩٨١ عاما كاملة! وما أعرفه الآن هـــو الماضى والمستقبل معا. المستقبل الذى كشف لى أوهام الحياة. وهشاشة أفكارى كلها عن صورة الإنسان الذى لم يتحقق وجوده فى

الزمـــن الماضى بأى شكل، بينما يعطى ذلك الكائن لنفسه أكثر مما يستحقه بدعوى أنه الأذكى فى حين أنه يسعى بذكائه هذا لتدمير نفسه بشـــكل كامل. أما من المستقبل.. من الزمن المقبل فيبدو كائنا مثيرا للسخرية بضيق أفقه وبلادته.

أعــرف الآن عــن يقيــن كامل أن الجنس البشرى يحتاج إلى تحســين خصائصه العقلية والبدنية حتى يستطيع أن يتعامل مع العالم المحيط به وليواجه تحديات السفر فى الزمن. ويكون قادرا عندئذ أن يــرى أشخاصـــا مثلي، لن تكون له الآن القدرة على رؤيتى بسبب محدوديـــة هـــذه القدرة، ولو أنى وصفت لأى ممن يعيشون فى هذا الزمـــن معـــنى الـــتطور العقلى الموجود فى المستقبل سأكون مثل شخص من نفس الزمن يشرح لآخر من عهد المسيح ظروف المدنية فى الألفية الثالثة. ولكن يمكن فقط، لأصحاب البصيرة، مثل أمى، أن يشـــعروا بـــى، وهـــؤلاء سيوصفون بالجنون. أما الذين سيصفونها بالجـــنون، فهم كغيرهم من فاقدى القدرة على تخيل الانفجار الكونى مـــثلا. أو ولـــوج روح شـــاردة إلـــى ثقـــب مـــن الثقوب السوداء للوصـــول إلـــى نفـــق فضـــائى يصـــل فى نهاية الأمر إلى الزمن المنشود.

والآن لا يعنيـــنى كل هذا، المهم هو وصولى فى الزمن الآخر إلى النضج الذى فرض على عودتى إلى هذه النقطة الزمنية الحرجة والمـــربكة مـــرة أخـــرى، فربما ظهرت لواحد من الذين أحبهم مثل طـــيف يراود أحلامهم، فأؤكد لهم أننى تغلبت على مخاوفى الدنيوية الصغيرة التافهة، وأننى الآن أقوى بما يكفى لأواجه ضعفى وخوفى،

معترفا به. أدين نفسى قبل أن أفكر فى إدانة زمن زرع فى أعماقى هذا الخوف الذى تمكن من عمق روحى حتى قتلني!

ولســت أهــتم بتوضيح مسار عودتى فى تلك الأنفاق الفضائية التى أصبحت خبيرا بها، فلا يهمنى أمر أحد هنا، مثلما أننى لا أعنى أحدا، حتى حنين، فوجودها وأزمتها هى الجزء الأهم فى حياة رامى وكريســتين، وهمــا قد بدأ معى رحلة عبر الزمن لست مخولا فيها لمساعدتهما فى اكتشاف طريقهما عبر الأنفاق الفضائية التى تتجاوز القوانين.

أمــا طــيفى فسيكون واحدا من رؤى أمى وخالتى تريزا طبعا، ونادية التى سأصطحبها- فى خيالها- للمرة الأولى والأخيرة!

القسم الرابع

أين أنا؟ النور الشاحب من خلف "الكوفرته" يشير إلى أن الوقت نهار. لكنى لا أعرف لماذا أشعر وكأن الوقت مازال ليلا؟ هل فقدت الإحســـاس بالزمـــن؟ أشعر أننى لا أستطيع أن أفتح عيني. هل أنام علـــى ســـريري؟ هـــذا يعنى أننى إذا فتحت عينى الآن سوف أرى الدولاب الضخم بلونه البنى القاتم وضلفه الخمس تتوسطها المرآة فى مواجهتي. وإلى يسارى يستقر الجدار بلونه "الروز"، وبموازاة رأسى ســـوف يكـــون بإمكـــانى- إذا فتحت عيني- أن أرى صف الكتب المتراصة فوق "الكومود" البيج الصغير.

ولكـــن هل أنا نائمة، أم مستيقظة؟ عقلى صاف تماما لأول مرة فـــى حياتي. صمت كامل.. وغريب. لا يمكن أن أكون مستيقظة ولا أســـمع المونولـــوج الداخلـــى لـــرامى.. فكرة تمر برأسه، تداعيات ذكـــرياته أو أفكاره التى تشغل عقله. أو حتى حالة من الكآبة الثقيلة التى تمر من روحه إلى روحى. وخزة ألم فى قلبى تبدأ من قلبه كلما تذكر غربة حنين الطويلة. الآن لا أشعر بهذا كله. صمت. عدم. أو ربما كابوس.

فحـــياتى كلهـــا لم تكن سوى هاتين الحياتين المزدوجتين اللتين عشتهما معا منذ بدأت فى إدراك وجودى. أمارس حياة رامى ذهنيا؛

أحــب مـــا يحبه وأكره ما يكرهه. أخاف مما يخشاه، وأتألم لآلامه. أتـــأمل أفكـــاره، وأصـــارعها أحيانا، لكن منطقها يغلبني في أغلب الأحيان فأتحيز لها كأنها أفكاري أنا. أما حياتي الأخرى فهي حياتي الـــتي أعيشها شاردة، مشوشة مضطربة الذهن. هذه حياتي الخاصة التي مررت بكل خبراتها بلا أي تركيز. اكتفيت فيها بما يقرره أبي، أو مـــا يقره رامي، بمجرد انتقال أفكاره إلي، عبر هذا التيار الخفي الذي ربط بيننا منذ كنا بويضة واحدة. كأن قدر توأمتي مع رامي قد فرض علي أن أعيش بنصف عقل. مثلما كنا بويضة واحدة انقسمت إلى شخصين.

هـــل إذا أعطيت الأمر لأصابعي بالحركة الآن ستتحرك فعلا. وإذا غـــرزت أظافري في فخذي هكذا.. سأشعر بالألم؟! آه ه. يبدو أنني لا أحلم. لكن لو أن ما أفهمه الآن حقيقي فهذا يعني أنني أعيش كابوسا بالفعل.

الآن أعـــرف لماذا كنت أحلم كثيرا طوال الليل، أحلام غريبة. عماد. نعم.. كان هذا هو عماد. حلمت به لأول مرة في حياتي. كان ظهوره في أي مكان يبدو معه وكأنه نسمة رقيقة هبت على المكان. شخص رقيق لا يناسب الحياة في هذا العالم. ابن موت كما يقولون. لكـــنه ظهر لي في الحلم مهيبا، وكأنه في موكب حاشد، يرفعه الذين يحـــيطون بـــه على الأعناق، شاهدت في المسيرة رامي وكريستين، وطـــنط تريـــزا وحتي حوده، فارس أحلامي القديم. كان يسير خلف الموكـــب ويهـــتف بحماس. لكن لم أفهم ما يقوله. وهو الوحيد الذي توقـــف، وابـــتعد قلـــيلا عـــن الموكب، تأمل عماد بنظرته الحادة،

وابتسامته الواثقة التى كان يرسمها على وجهه دائما، ثم بدأ يسير عكس اتجاه الموكب.

هذا الصمت لم يأت من فراغ. فلم أكن طبيعية نهائيا خلال الأيام الثلاثة الماضية. كنت- تحت ضغط رامي- أستعيد ذكرياته بإلحاح غريب. لم أستطع أن أسيطر على نفسي، فقد تشوش عقلى من شدة تضارب الأفكار والذكريات. هربت من حنين مضطرة، وأرسلت لها دفتر مذكرات رامى الذى أوصانى بأن أحتفظ به.

اللقطات التى كان يستدعيها من ذاكرته وتبث إلى عقلى كانت تتسارع، وتتتابع بشكل غريب. أغلقت على نفسى الغرفة. يوسف ونسرين يتفهمان حالتى جيدا ويتجنبان إزعاجى فى مثل هذه الحالات.

استلقيت على الفراش وأنا أشعر أن رأسى على وشك الانفجار من الصداع. لا أستطيع أن أوقف أفكاره التى يستدعيها من الطفولة، ومن الإسكندرية، ويحلق بها إلى دبي.. شريط كامل كان يمر فى رأسي: مشاهد طفولتنا فى بيت العائلة. لقطات له وهو ينام فى أحضان أمي، تدلله وتحكى له ما يحب أن يسمعه. أشتاق لأمى جدا، وأفهم أنه يفكر فى عشقه المكبوت لأمي. ابتعاده عنها فى صباه خوفا من بابا الذى يكره تدليلها له. ألعابنا المشتركة مع شلة توريل الذين توافدوا على رأسى جميعا: على وبسنت وجلال وحودة وجولي، وطبعا عماد.. استعاد شريط ذكرياته معه كاملا وأبكانى حتى أوجع قلبي. كريستين بكل تفاصيل علاقتهما قبل الزواج. ثم

تفاصيل الزواج نفسه، وحياتهما في الإسكندرية حتى ذلك اليوم المشئوم الذى اختفت فيه. عاش١٥ عاما من عمره في ألم حقيقى لأنه لم يعرف ماذا حدث لها. لكنه أقنع نفسه لسنوات طويلة أنها عادت إلى الدير، وهى الفكرة التى حاول بها أن يحافظ على عقله وحالته النفسية التى ساءت بشكل كبير خلال الشهور الأخيرة تدريجيا.

انهياره الحقيقى بدأ فى دبي، رغم أن السنوات الأخيرة التى بدأ فيها حياته هناك مرت بسلام بعد أن حقق دخلا اطمأن منه على حنين وعلى قدرته على إيقاف نزيف بابا المادى الذى كان يبذله راضيا من أجل أن تستكمل حنين حياتها هناك.

تذكر "أولجا" الفتاة الروسية البلهاء المهووسة بنفسها والتى تعلق بها لأنها تشبه ماريا، أو ربما لأنها ذكرته بها، وبعد أن اكتشف عبث الفكرة تعرف على "رولا" اللبنانية التى بدأ اكتئابه بسببها، وبعد أن عرف بحملها منه كاد أن ينهار تماما، لكنه أجبرها على الإجهاض بعد هروبها إلى بيروت.

أتلفت هذه الحادثة أعصابه تماما بسبب إلحاح فكرة أنه تسبب في قتل طفل قبل أن يرى النور. لكن رعبه من استعادة تجربة تربية حنين وهى بعيدة عنه فى قارة أخرى كان أكبر من أى مشاعر أخرى.

بابا هو الذى قرر أن يدخله إلى هذه المصحة بعد الانهيار الأخير، كان قد أصبح شديد العصبية. يثور بلا أسباب موضوعية، وتداهمه أحيانا حالات من الهياج العصبى تنتهى بنوبات هذيان، له

الآن ستة شهور وحالته تتحسن تدريجيا. لولا الآلام العجيبة التى بدأ يعانى منها منذ أسابيع.

كـــان من المفترض أن نزوره أنا وحنين نهاية الأسبوع. ولكن يبدو... أن حنين.. لن تستطيع أن تراه مرة أخري. هل هذا معقول؟ كيف سأواجه هذا الألم؟ لن أستطيع مواجهة أو احتمال أحزان حنين علـــى يـــتمها الكـــامل وفقدانها رامى الذى كان يمثل كل شيء فى حـــياتها. وســـأنهار أمـــام بابا وماما التى عاشت تولول على حظه التعيس منذ زواجه وحتى هذه اللحظة.

وأنـــا.. كيف يمكن لى أن أعيش الآن فى هذه العزلة والصمت القـــاتل وحـــدي، بنصف عقل، ونصف روح؟! هذا الفراغ لا يمكن لأحد أن يملأه. لا يوسف ولا نسرين، ولا أى أحد فى هذا العالم.

المذكـــرات التى أعطيتها لحنين نزعت منها الفصول الأخيرة. خفت أن تفهم منها شيئا عن مرضه أو إحساسه بالموت. بل خفت أن تـــدرك شيئا عن اختفاء أمها وشكوك رامى فى قتل كريستين. ويبدو أننى الآن مجبرة على أن أسلمها بقية الأوراق.

لا أعرف ما هذا الوخز المتلاحق فى قلبي؟! كانت أفكار رامي، مهما بدت مزعجة هى ما يصنع لى الأنس فى هذا العالم. لأن حياتى الخاصة لم يكن فيها شئ مبهج وأنا أعيشها مشتتة، وهو ما أثر على علاقـــاتى العاطفـــية الـــتى لـــم تـــنجح واحدة منها. ولم يستمر أى ممـــن تقدمـــوا لخطبـــتى أكـــثر مـــن ســـتة أشـــهر، إذا صمدوا، وكـــانوا يضـــطرون فـــى النهاية إلى فسخ الخطبة، لأننى مشوشة، ولأنني، كما وصفنى آخرون، غريبة الأطوار. أشرد منهم طويلا بلا سبب.

تفرغت بنصف عقل لدراسة الطب هربا من فكرة الزواج التى بـــدت لـــى بعيدة، ولا تناسبنى وأنا أعيش حالة عقلية مزدوجة طول الوقت.

يوســـف هـــو الوحيد الذى أعجب بى للنهاية، وكنت أهرب منه حـــتى لا تـــزيد قائمة خطابى الهاربين فردا جديدا، وتلحق بى سمعة بأننى "أطفش العرسان"، لكنه كان لحوحا وصبورا. فقد كانت غرابة أطوارى هذه هى التى تثير فضوله، وشرودى هو الذى يسبب إثارته بشكل غريب، كما أخبرنى بعد ذلك. وحتى بعد الزواج تقبلنى كما أنا وتقبل حياتى "المودية" المتقلبة مراعيا ظروفى بين عملى بالمستشفى ورعايـــتى لنسرين وعقلى الشارد فى أفكار رامي. وما تبقى له من فتات مشاعرى واهتمامى كان سعيدا به.

ولهذا أدركت معه مشاعر الحب الحقيقية، وشغل تدريجيا مكان حـــودة- فارس أحلامى القديم- فى خيالى، كفارس حقيقي. وتعلمت مـــنه معـــنى الحب، والأمان. وأذهلنى بإنكار نفسه واحتمال حياتى المضطربة، وشعورى المستمر بالألم والحزن الذى اختبرته دون أن تكون لى تجارب حياتية مؤلمة بشكل حقيقى.

أيكون القدر اختار هذا التوقيت لرحيل رامى لكى أحاول أن أرد الجمـــيل إلـــى يوسف؟! أن أعطيه- للمرة الأولى- كل نفسى: حياة ذهنـــية وعاطفية وجسدية كاملة. أهى- كما كان رامى يقول دائما- لعـــبة أخـــرى من ألعاب الزمن والصدفة، أم تصاريف قدر مكتوب ومحكم ومعروف مسبقا؟

لـــم أحسم أمورا كثيرة فى حياتى، ومنها مسألة تصاريف القدر والصدفة. انسقت لأفكار رامى دون أن أختبرها، ودون أن أقتنع بها أيضا.

هــل أبــدأ رحلــتى أنا الآن؟ أتعرف إلى يوسف بشكل حقيقى. وأعطــيه كل مشاعرى التى يستحقها، وأمنحه جسدى بتركيز كامل تعويضـــا لـــه عن كثير من ممارسات الحب التى لم تكتمل، أو التى كنـــت أبـــدو فـــيها كومة من اللحم بلا مشاعر ولا رغبة، من شدة انشـــغالى بأفكار وهواجس، بعضها لم يكن يعنينى لكنى مجبرة على التفكير فيها.

كـــيف أفكر هكذا أساسا؟ هل سأستطيع أن أعيش بدون رامي؟ كنت أعتقد طول عمرى أن خط حياتى مرتبط تماما بخط حياته وأننا ســـنموت فى يوم واحد. والآن لا أعرف كيف يمكن أن يكون للحياة طعـــم بـــدون وجوده فيها. أم أن هذه هى مفاجآت القدر، أو حكمته. ربما أننى أعيش فقط من أجل نسرين التى ظلمت معى هى الأخرى، وربما سيمكننى الآن فقط أن أعطيها الوقت والرعاية التى تستحقها، وحنيـــن أيضا.. سأكون الآن بمثابة أمها وأبيها معا، فهل أستطيع أن أعوضـــها فقد رامى الذى كانت تتنفس بوجوده فى حياتها، حتى لو كان بعيدا عنها لكنها دائما تعرف أنه موجود، يقف خلفها، وتستطيع أن تراه أمام عينيها إذا احتاجته فى أى لحظة.

وإذا كنـــت سأســـتطيع أن أرعاهـــا بشكل ما، فكيف سيمكننى إقـــناعها بضرورة اتخاذ قرار فورى فى العلاقة العاطفية المأساوية التى تعيشها والتى حكت لى عنها أخيرا؟

كنـــت أعول على رامى تماما فى هذه المسألة، فهو وحده الذى يملك منطق إقناعها، وهي، رغم عنادها، تستجيب له غالبا. بالإضافة إلى أنه يملك مفاتيح التعامل معها وفقا لظروف تربيتها وثقافتها التى تتكيف بها مع المجتمع فى فرنسا.

أشعر الآن فعلا بأن قلبى على وشك أن يتوقف من إشفاقى على حنيـــن وإشفاقى على نفسى فى مواجهتى لهذه الكارثة. كنت أستطيع أن أتفهـــم العلاقـــة لو أنها أحبت مسيحيا أو حتى يهوديا، كما فهمت منها. لكن أن تضطر لتترك حياتها فى فرنسا لتعيش فى إسرائيل! ما الـــذى كـــان يمكن أن يحدث لرامى إذا عرف شيئا كهذا؟ هى التى رفضـــت أن تذهـــب مـــع رامى إلى "دبى" لأن حياتها استقرت فى "باريس"، فكيف لها أن تعيش معزولة فى مجتمع خطير كهذا؟

لا أســـتطيع أن أفهم هذا إلا بأنه محاولة غير مباشرة للانتحار. ولا وجه للمقارنة بين هذا الوضع وعلاقة أبيها وأمها.. لأن علاقتهما نجحـــت بســـبب أن أيا منهما لم يفرض الجانب الدينى على الآخر، حتى لا تتعرض حياتهما المشتركة للخطر. أما أن تعيش مع يهودى إسرائيلى متدين يريد أن يعيش هناك؟. ما الذى يدعوها لذلك. ولماذا تؤسس حياتها على فكرة عنصرية بهذا الشكل.. الحب الأعمى ليس حبا.. هذا ما تعلمته من الحياة.. ولكن كيف أوصل لها هذه الأفكار، هـــى الـــتى تقرر وتخطط لحياتها كل شيء، والآن بعد رحيل رامى ربمـــا ستتصـــور أن ذلك الشخص هو الذى يمتلك الخيوط العاطفية الوحـــيدة فى حياتها. هذه مصيبة.. مصيبة يا رامى ولا أعرف ماذا أفعل فيها فعلا.

ربما الآن- فقط- علىّ أن أفتح عينى أولا!

مفتاح الحياة



-١١-

مــن أيــن يبدأ الجمال؟ هل يبدأ مثلا من نموذج مثالى لملامح وجــه مــنمقة ذات مواصفات قياسية؟ أم من تكوين جسدى يخضع لنفس المواصفات؟ وهل هذا المثالى النموذجى يمكن بالفعل أن يعمم؟ هــل مــا أراه جمــيلا، بالضرورة، يبدو كذلك لدى الآخرين، أم أن للجمال دائما مواصفات قياسية روحية لا يمتلك أحد أسرارها؟

الجمـــال عندى دائما يبدأ فى اللحظة التى يتم فيها كسر النموذج القياســـي. لا يســـتثيرنى وجه مستدير بعينين خضراوين وأنف دقيق يشـــبه أنف كليوباترا. لكن هذا الوجه قد يصبح فاتنا إذا استطال الفك قلـــيلا أو بـــرزت الشـــفتان أو ضـــاقت العينان عن مقاييس الجمال العربي، خاصة إذا كانت هاتان العينان الضيقتان متوهجتين بصخب ترسل إشاراته إضاءة مبهرة قادمة من أعماق الروح.

كريســـتين كانت تمتلك هذا الجمال الذى يبدو بالنسبة للآخرين نموذجـــيا: وجـــه مستدير وملامح منمقة، أنف صغير منحوت بعناية ورقـــة. شـــفتان صـــغيرتان منمنمتان. عينان خضراوان واسعتان، وشـــعرها الطويل ينسدل على كتفيها بلون كستنائى فاتح. كما كانت تمـــتلك جســـدا فارعا رشيقا ومتناسقا، وبشرة بلون الشاى بالحليب.

وكـــل هـــذا، بمـــرور الوقت، قد أصبح معتادا بالنسبة لي. جمالها، عندى، كان ينبع من الروح.

لكننى فى ذلك اليوم بهرت بجمالها وأنا أراقبها من موقعى نائما علـــى ظهرى، عاريا بينما هى تعتلينى أتأمل اهتزاز نهديها البديعين علـــى إيقـــاع حركتها الرتيبة، بينما تتدلى من رقبتها السلسلة الذهبية التى تنتهى بقطعة الذهب المشكلة على هيئة مفتاح الحياة، والتى كنت أهديـــتها إياها فى عيد ميلادها الثامن عشر في١٨ فبراير، وقبل ستة شهور من تاريخ هذه الواقعة.

وبفضـــل عـــريها الكـــامل إلا من تلك السلسلة والقلادة الذهبية التهـــب جمالها، وهو ما أضاف إلى استمتاعى بتقلص ملامح وجهها بفعـــل اللذة إحساسا جماليا وحسيا مختلفا. وعندما ألقت بنفسها على صـــدرى تقـــبل رقبتى بشهوانية، كنت أدفع نفسى إليها لأحافظ على الإيقاع، بينما مفتاح الحياة ينام مستكينا بين نهديها وصدرى.

امـــتلأت آنـــذاك برغـــبة حارقة في أن يتوقف الزمن عند هذا الطقـــس الإيروتيكي، وأن نستمر فى نظم قصائد الشعر الجسدية هذه إلى الأبد، تحيط بنا تلك الموسيقى الخافتة التى تتسلل من بين ألحانها همســـات بشـــرية بـــلا لغة محددة، تختلط بتأوهات كريستين الشبقة وتمـــتزج كلها مع ما يبدو وكأنه ترانيم تخطف القلب، وتشف روحى تمامـــا وأنـــا أتابع النظرات الحانية المطلة من الأيقونات المعلقة فى خيالى!!

لكن ألعاب الزمن والصدفة كان لها رأى آخر. فبعد شهر واحد جاءتنا البشارة بـــحنين، وهى الإشارة التى تلقتها كريستين من طبيب

التحاليل بفزع شديد بينما حاولت أن أبدو رابط الجأش، كما يقولون، أخفـــى رفيف طيور الفزع فى أعماقى بابتسامة حانية مرتبكة، وأنا أقول لها.. مبروك يا حبيبتي!

-١٢-

كانت نادية- بطبيعة الحال- هى أول من عرفت بالأمر، بفضل العلاقـــة الروحـــية التى تربط بيننا. اقترحت على اسم طبيب موثوق فـــيه يمكـــن أن يجـــرى عملية إجهاض لـــكريستين تقديرا لموقفنا الصعب.

عـــندما أســـتعيد حالـــتى فى ذلك اليوم أجد صعوبة شديدة فى وصفها، لأنني، تقريبا كنت أبدو ذاهلا ومشتتا، وخائفا، ولأننى أكره الخـــوف، فقـــد ارتبكـــت تماما. بينما زاغت نظرات عينى كريستين واصـــفر وجهها حتى إنها بدت بشحوب وجهها كأنها مريضة مرضا خطـــيرا. أمسكت بيديها وقلت لها برقة إن الطبيب الذى سنبحث عنه هـــو الـــذى ســـتتابع معه حملها حتى تضع المولود. وفى هذه المرة اصـــفر وجـــه نادية التى لم تكن تتوقع هذه الإجابة. لكننى كنت على يقيـــن أن قرار الإجهاض هو مثل شهادة موت كريستين لا يمكن لها أن تحتمله. كما أننى كنت أشعر برغبة حقيقية فى رؤية وجه الطفل الـــذى بالكاد، كان قد تشكل، فى رحم كريستين على ضوء الشموع وعلى مرأى من الأيقونات.

* * *

لـــم يكن أمامنا سوى الزواج. وكنت قد تسلحت بالخطط البديلة لهروبـــنا أنا وهى من المنصورة إذا لم يوافق أبى على الزواج. لكن أمى هى التى لعبت دور البطولة، فبعد أن أبدت امتعاضها للحظات، ســرعان مـــا رســمت ابتسامة حانية وهى تؤكد لى أن الخيرة فيما اختاره الله، وأننا لا حيلة لنا فيما يقدره لنا.

واستخدمت منطقها هذا فى إقناع أبى وتخفيف حدة غضبه، قبل أن تـــنهى كلامها معه قائلة: ده حتى سيدنا النبى نفسه اتجوز ماريا القبطية. ثم سألته:

- ولا انـــت ضميرك هيبقى مرتاح لو سابها كده؟! انت عندك بنات يا حسين، وبنات الناس مش لعبة.

لكـــن غضـــب أبى فى أول الأمر وآخره لم يكن سوى غضب الرحـــيم، الذى يشفق علينا من رعونتنا، ويشفق على بشكل شخصى من أن أبدأ مسئوليات الحياة فى هذا العمر الصغير. وخوفا من أهل كريســتين الذيـــن لن يغفروا لها ما فعلته أبدا، حتى رغم احتفاظها بدينها، فهي، بالنسبة لما يعتقدونه، ليست سوى زانية.

اشـــترى أبـــى لـــنا غرفة نوم جديدة، وأعاد طلاء البيت كله، وأوصـــى أمى ونادية بحماية كريستين، وعدم استضافة أى أحد فى البيـــت حتى تضع مولودها فى سلام. وكلف بواب العمارة بالتشديد علـــى عـــدم دخول أى شخص غريب إلى العمارة وهدده بعنف إذا حدث شيء كهذا.

أمـــا "طـــنط جورجيت" فقد أبدت قسوة قلب لم أتوقعها منها منذ معرفتها بالأمر، وتبرأت من كريستين وأصرت بعناد على ألا تراها

واعتبرتها في عرف الأموات. لكنها انهارت قبل الولادة بأيام وحضرت لزيارة كريستين في سرية شديدة دون أن تخبر عمى جورج- الذى قدم طلب نقل للقاهرة بعد زواجي من كريستين وتوفى بعد أيام من ميلاد حنين- أو أى من أخوال كريستين الذين كانوا يرسلون لى يوميا رسائل تهديد شفاهية وأحيانا كان خالها "موريس" يتصل بى هاتفيا ليؤكد لى أن استمرار الحال على ما هو عليه من رابع المستحيلات.

* * *

ليلة الولادة كانت واحدة من أصعب الليالى التى مرت علي: فقد تحولت فى تلك الليلة إلى كتلة من الخوف.. الخوف من الوضع الجديد ومن تهديدات أهل كريستين، وخوفى عليها هى التى تضع مولودها الأول ولم يتعد عمرها العشرين. وبسبب توترى الشديد، اصطحبنى أبى إلى "مقهى أندريا" حيث قضينا طول النهار وحتى اتصلنا بأمى لتخبرنى بصوت متهدج بالفرح: بنت زى القمر يا رامي.. زى القمر يا حبيبي.. تتربى فى عزك.

وعلى الأريكة الوثيرة التى قضيت عليها ليلتى الأولى كأب، كانت الأسئلة والأفكار تلاحق رأسى بعناد، عن المستقبل، وكيفية تدبير نفقات الإعاشة وما زال أمامى أكثر من شهرين على اختبارات السنة النهائية بكلية الحقوق. هل أستجيب لرغبة أبى بالعمل معه فى الأعمال الحرة؟ وماذا عن حلم العمل بالنيابة أو المحاماة؟ وكيف

سأستطيع حماية هذه الطفلة الصغيرة الجميلة وأمها من المخاطر المحتملة؟

ما كان بإمكانه أن يخفف عنى قليلا هو الإحساس الجديد الذى تفجر فى البيت بعد الولادة.. الفرحة الطاغية التى غمرت ماما بحفيدتها. وأبى الذى كان يبدو سعيدا بها أيضا. يدخل الغرفة كل بضع دقائق ليطمئن عليها. أما نادية فقد كانت شديدة السعادة بلقبها الجديد "عمتو نادية".

لكن هذا كله لم يمنعنى من التفكير فى المفارقة الكبيرة التى بدأت أعيشها منذ الخامس عشر من أبريل١٩٨٣ كأب ما زال أبوه يدبر له نفقات معيشته، متزوج من مسيحية مطاردة من أهلها، ولنا ابنة.. طفلة رائعة.. لا نعرف على أى دين سنربيها!

-١٣-

الجـرى فـى المحـاكم بالنهار، والعمل الإضافى بمكتب أحد المحاميـن مسـاء، مع الراتب الشهرى الإضافى الذى وفره لى أبى نظير منصب شرفى كمسئول عن الشئون القانونية فى مكتبه، يسرت حياتـنا أنـا وكريستين، لكن ملاحقات أهلها ومضايقاتهم المستمرة، خاصة بعد وفاة عمى جورج جعلت من حياتنا جحيما.

إلـى الإسـكندرية، وفـى سرية تامة، قررنا الرحيل. وبفضل مجموعـة مـن أصـدقاء والدى استطعت تدبير وظيفة لا بأس بها بالشـئون القانونية فى شركة تصدير كبيرة. كما أجر لى أحدهم شقة تقـع علـى الكورنيش، اعتاد تأجيرها للمصطافين فى الصيف بأجر رمزى إكراما لوالدي.

اسـتعدت الـثقة فـى الحـياة مـرة أخـري، واستمتعت مع كريسـتين بحياتـنا الجديـدة. بالحـرية، وبالشعور بالأمان. وعدنا لممارسـة الجـنس بمتعة، وهو ما جعلنى أفكر فى الأسابيع الأولى لوجودنا بالإسكندرية أن ممارساتى للجنس ترتبط بوجودى قريبا من البحر!

أمـا استمتاعنا الأكبر فكان يتجلى فى مراقبة حنين وهى تكبر أمـام أعينـنا يومـا بعد آخر، تدهشنا بروحها المرحة، وخفة ظلها،

وباستثناء الفترة السخيفة التى تعذبت فيها وعذبتنا أثناء التسنين، فقد كانت طفلة بشوشة رائعة.

هذه الذكريات تبدو لى غريبة فعلا، وربما لم تكن تمر على خاطرى كثيرا قبل أن أجلس لكتابتها فى هذه المذكرات. كأن الأحداث السيئة التى أعقبت ذلك محت ما قبلها ولم يعد له وجود. أدركت الآن مثلا أن حياتى فى الإسكندرية فى هذه المرحلة تتمركز حول ذلك اليوم الكئيب الذى بدأت بعده أعيش كارثة حقيقية.

فقبل عام واحد من بلوغ حنين سن المدرسة، عدت إلى البيت لأجدها تجلس فى غرفة النوم بمفردها. كانت قد استيقظت من النوم، بينما لايوجد أى أثر لكريستين، ولم تفلح محاولاتى فى سؤال حنين عن الوصول إلى أى شيء مفيد.

كل شيء فى مكانه: ثيابها كلها، أحذيتها، زجاجات العطور، أدوات الماكياج. لا أثر لأى شيء سوى هذا الغياب المريب.

كل الأسئلة التى يمكن طرحها فى موقف كهذا مرت على خاطرى بسرعة، ولكن بلا إجابة. هل خطفوها؟ هل قتلوها؟ هل يمكن أن تصل بهم الجرأة إلى هذا الحد؟ هل غضبت منى فقررت أن تترك البيت؟ كانت الأمور بيننا جيدة.. وحتى لو فعلت ذلك، فلن تترك حنين. ربما لا يتعدى الأمر كونها ذهبت إلى البقال المجاور أو أنها شعرت بتعب مفاجئ فذهبت إلى المستشفي.. ولكن لماذا لم تصطحب حنين أيضا؟

اتصلت بكل معارفنا دون جدوى وأنا أسترق السمع لأى وقع خطوات أو حركة قرب باب الشقة، على أمل أن أجدها واقفة أمام الباب لتنتهى فصول هذا الكابوس.

ولم أذهب لعمل محضر بقسم الشرطة إلا بعد أن تأكدت من أنها لم تذهب للمنصورة أيضا. ثم اصطحبت حنين إلى هناك لتجلس مع جدتها وجدها. حاولت الذهاب إلى أخوالها، لكن والدى منعنى مؤكدا أنه عرف أنها لم تذهب إلى هناك. وطلب منى الذهاب للإسكندرية لإجراء كل ما يمكن من وسائل البحث عنها، وبعدها يمكن للشرطة أن تتحقق من مدى تورط أهل أمها فى اختفائها!

بعد عودتى إلى الإسكندرية مرة أخرى بدأت أتردد على كل المستشفيات، واستعنت ببعض أصدقائى من رجال الشرطة فى إجراء اتصالات واسعة بالأقسام فى الإسكندرية للتأكد مما يفيد عن تعرضها لحادث من أى نوع.. ولكن دون جدوى.

الإجابات المفتوحة على اتساع الاحتمالات زادت من قلقي. فقد كانت فكرة اختفائها بهذا الشكل الغامض قاسية جدا. ثم ماذا سيحدث فى المستقبل؟ كيف سأعيش أنا وحنين بدون وجودها معنا؟ كان السؤال ينفض روحى بالألم، ويوجع قلبى بالشكل الذى جعل من فكرة الحياة تعاسة تفوق قدرتى على احتمالها.

بعد شهر كامل، وبعد أن فقدت الأمل فى العثور على كريستين كان عليَّ أن أكفكف أحزانى وأفكر فى السفر بحنين إلى مكان بعيد، فقد تكون هى هدفهم التالي، أو قد أكون أنا الهدف الجديد.

ولكن إلى أين؟ ما هو المكان الذى سأضمن أن تعيش فيه حنين آمنة من شر غامض متربص؟!

الحـــل اقترحه "عم رضا الشايب" صديق والدى الذى كان على علاقـــة بمجموعـــة مـــن الدبلوماسيين بالسفارة الفرنسية. وقبل أن استخرج التأشيرة كنت قد اتصلت بصديق طفولتنا احمد حسين الذى هاجـــر إلـــى فرنسا ويعيش مع زوجته الفرنسية "سيسيليا" و"ابنتهما" "ناتالي"، التى ستصبح صديقة حنين لاحقا.

أصر أحمد على أن تعيش حنين معهم فى البيت، ولكنى أشفقت علـــيه، وخشـــية إثارة المشاكل مع زوجته- رغم أنها رحبت كثيرا باستضـــافة حنين- فضلت البحث عن مدرسة داخلية مناسبة على أن أعـــود لرؤيـــتها مرة كل شهرين، وأن تقضى العطلات الطويلة مع احمد حسين وعائلته.

عـــندما عدت إلى مصر، لم أكن أعرف إذا ما كنت قد تخلصت من كابوس مقبض أم أننى بدأت أعيشه بالفعل، فعندما دخلت غرفتى فـــى المنصـــورة واجهـــت إحساسا مرعبا بالوحدة وشعرت بالغبن، وبمـــدى قســـوة لعبة الزمن هذه المرة. بدأت أشعر بخلو حياتى من وجـــود كريســـتين بشكل نهائي، وأتذكر ملامح حنين وهى تودعنى لآخـــر مـــرة فى باريس فيكاد قلبى يتوقف كمدا. وكان على مقاومة الاستسلام للانهيار.

-١٤-

كلما استبد بى الألم تذكرت عماد، الذى كان فقده موجعا، ضربة فــى العمــق. فقد مبكر لصديق الطفولة والصبا، الذى كان يكملنى بشــفافيته ونقائـــه الكامليــن. فى مدرسة الملك الصالح، وفى الملك الكـــامل مـــن بعدها عرفت معنى أن يفرقوا بيننا أثناء حصة الدين. يخـــرج هو و"رامز" و"روجيه" و"باسم" قبل بدء الحصة، ليأخذوا هم حصة الدين مع الأستاذ كمال مدرس العلوم المسيحى.

"نفســى أصــحى ألاقــى الناس كلهم دين واحد".. هكذا كانت كريستين تهمس لى كل صباح قبل أيام من اختفائها.

فرقوا بيننا فى المدرسة، وجاء ملك الموت ليفرق بينى وبينهما كلــيهما للأبد. بينما حنين.. قلبى.. هذه الصغيرة الرقيقة تعيش على بعد آلاف الأميال بلا أب ولا أم، تستبدل حياتها بحياة جديدة دون أى ذنب.

صــحيح أن أمهــا كانت تتمنى لها أن تعيش فى فرنسا، ولكن بالتأكيد ليس بهذا الشكل. ولهذا علمتها الفرنسية منذ بدأت فى الكلام، تمامــا كمــا تعلمــتها هي، واتقنتها عبر دراستها فى مدرسة العائلة المقدسة أو Saints Familles العريقة حيث كنا نصطحبها أنا وعماد فى الأيام التى كانت تتأخر فيها على "الاوتوكار" كما كانت

تســميه. نسير عبر المختلط وحتى مزلقان القطار، ثم ننحرف يسارا لــنمر أمام المدرسة "الأميرية الاعدادية" ثم "الإسلامية" وحتى نصل إلى المبنى العريق الأوروبى الطراز ونودعها عند الباب.

اكتشــفنا العــالم سويا. تعلمنا تدخين السجائر معا. مازلت أذكر الــيوم جيدا. أعلى مزلقان الهابى لاند، على المشاية العلوية، فى يوم شتوى بارد مصحوب بالريح، حاولنا إشعال أول سيجارة لمدة نصف ساعة دون جدوى. وفى النهاية أشعلها عماد من الفلتر. كدت أقتلك يا عماد غيظا قبل أن نسقط على الأرض من شدة الضحك.

كنا نرى الأشياء نفسها بطرق مختلفة، أحدثه عن شخص يدعى "ســتيف أوســتن" بطــلا لحلقات يجسد فيها رجلا ذا قدرات خارقة فيحدثــنى عــن شخص شبيه له شاهد له حلقات بعنوان رجل بستة ملاييــن دولار! أحكى له عن اكتشافى للذة مدهشة مصحوبة بسريان ما يشبه التيار الكهربائى فى كل جسدى بعد أن أحك عضوى بشكل مســتمر، فــيحكى لى أنه قرأ عن شيء مشابه يسمى العادة السرية وبعدها نكتشف أننا نتحدث عن نفس الشيء فنغرق فى الضحك.

اكتشــفنا عالمــا مــن العــري، وأجساد العاريات النموذجيات الكــاملات الجمــال يستعرضن أجسادا بلا ندبة واحدة ولا علامة أو حــتى "وحمــة" فى مجلات "البلاى بوي" و"فنتاوس" التى كان عماد يسرقها من خاله عماد. وهى المجلات التى أثرت فى صياغة عوالم جنســية خيالية.. تماما مثل الأفلام الجنسية التى شاهدناها فى مرحلة لاحقــة. ومــن حسن حظى أن ممارساتى الجنسية الأولى كانت مع

ماريـــا، الـــتى خففت كثيرا من صدمة اختلاف الجنس المرئى وأداء ماكينات الجنس الآلية فى الأفلام عن الممارسة الفعلية.

فـــى طفولتـــنا، كنا نمارس عملية الهروب الكبير، نطلق سيقاننا للريح بمجرد أن نشاهد ذلك الشخص المريب الذى كان يقتنى دراجة يـــتجول بهـــا فى كل مكان. ماذا كان اسمه؟ حامد الشويلى على ما أذكـــر، أو شـــيئا مـــن هذا القبيل. أخبرنا جلال أنه "بتاع عيال" وله خطـــط عديـــدة ومتنوعة للإيقاع بضحاياه. وامتنعنا عن الذهاب إلى سوق الحمام فى الشيخ حسنين عندما اكتشفنا أنه يذهب كل ثلاثاء إلى هـــناك مـــع مـــربى ومطيرى الحمام. يبحث عن ضالته، وفى نفس الوقت يبيع بعض أفراخ الحمام النادرة التى يقتنيها.

تقريبا، اشتركنا فى ممارسة أغلب تجاربنا الأولي، حتى تعاطى الحشـــيش. فى المرة الأولى التى ذهبنا فيها إلى "الغرزة" التى كانت تقـــع فى خرابة تجاور بيت مهجور قبل أن تتحول إلى مبنى حديث. كـــنا قـــد دخلـــنا المرحلة الثانوية، وقررنا أن نقلد الكثير من زملاء الدراســـة وبعض أفراد الشلة فى توريل الذين بدأوا قبلنا فى تعاطى الحشـــيش. نـــتابع طريقـــتهم فى رص الحجارة باقتطاع كتل رقيقة متساوية من قطعة الحشيش ذات اللون البنى الداكن، ووضعها أعلى رؤوس الحجارة الممتلئة بالمعسل، بعد فتح ورقة السوليفان الصغيرة بأيدى مدربة.

عندما جاء دور عماد أمسك بالغابة بثقة مفتعلة، وبدأ يشد أنفاساً مـــتقطعة، ثم جذب نفسا أخيرا طويلا بعض الشيء، وقبل أن ينتهى منه، فوجئت بالغابة تقع من بين يديه، ثم مال إلى اليمين قليلا قبل أن

يهـوى إلــى الأرض بلا حركة. وحاولت جاهدا أن أمنع نفسى من الضحك الهيستيرى الذى أن يمزق أحشائى من فرط دراميـة الموقف. لكنــنا أطلقــنا العنان للضحك طول المساء أثناء جلوسنا فى الصالة العلوية لنادى الشرطة حيث كنا نلتقى مع الشلة كل مساء.

اكتفيــنا بعدهــا بشــرب النبيذ والبيرة فى "بار أندريا" الضيق بـأنواره الحمــراء الداكــنة والــذى يقع مدخله فى الشارع الضيق المجــاور لمقهى أندريا. أو نهرول إلى سرادق حظ، يغنى فيه "أحمد صــقر" بعض أغانيه الشعبية المعروفة فى المنصورة وما حولها، أو إى أى مــن حفــلات الزفاف التى تقام فى نادى الشرطة أو "استاد المنصورة" إذا عرفنا أن "خالد عجاج" يغنى فيها.

الآن ليس لدى سوى هذه الوحدة القاتلة.

-١٥-

لــم أفهم سر زيارة موريس- خال كريستين- الغامضة لوالدى فى المنصورة. فقد كانت الصلات مقطوعة بعد انتهاء التحقيقات فى اختفاء كريستين منذ عدة سنوات. حتى طنط جورجيت انقطعت عن الاتصــال بعــد سفر حنين، وهو ما سبب لى الشعور بالراحة لأننى كنــت أخشـــى أن يعرفوا مكانها. فهل أراد موريس بزيارته هذه أن يعــرف مكانهـــا، أم أن لديـــه شـــيئا يريد أن يخبرنا به بخصوص كريستين؟

كان الغضب فى أعماقى يتزايد كلما مر الوقت وأنا فى طريقى مـــن الإســـكندرية إلـــى المنصورة. كل طرقة من طرقات عجلات القطـــار الرتيـــبة على القضبان كانت ترفع من درجة تحفزي، وفى أعمـــاقى كـــان إحساســـى راســـخا بـــأن المأساة التى أعيشها كان لـــــ "موريـــس" دور فـــى تدبـــيرها بشكل ما. ضيق الأفق، غبي، ومريض نفسيا. يدعى التدين، ولا يفوت الفرصة للذهاب إلى الكنيسة وأخذ بركة الرهبان والقساوسة. لكن لم يرمش له جفن وهو يقرر أن يسمم حياتى.

نزلـــت درجات سلم محطة المنصورة مهرولا، واتجهت صوب أول "تاكســـى" وجدتـــه، وطلبـــت منه التوجه إلى شارع حسين بك،

وطلبت منه أن يتوقف أمام الشارع الضيق المؤدى إلى حى "الحسينية" والذى يقع بيت موريس فى منتصفه.

لم أعد أذكر الآن كثيرا من التفاصيل، لكن الأمر انتهى بى أنا وهو وبعض جيرانه وصبيان الورش الواقعة أسفل بيته، فى قسم الشرطة، والدماء تسيل من وجهى ووجهه، ولم نخرج من هناك إلا بعد تعهد متبادل بعدم تعرض أى منا للآخر.

بعد هذه الواقعة بدأت زياراتى للمنصورة تقل تدريجيا، وتتباعد الفترات التى تفصل بينها. أحيانا كانت أمى تصطحب نادية ويأتيان لزيارتى فى الإسكندرية. وكنت أحاول أن أغرق نفسى فى العمل بشكل يكاد يكون هيستيريا، أبرره باحتياجى لتوفير إعاشة ودراسة حنين فى فرنسا. ولكنى فى الواقع كنت أريد أن أهرب من التفكير فى الموضوع حتى أستطيع أن أشفى من الاكتئاب الذى بدأت أعراضه فى ملاحقتى وعلى مدى السنتين اللاحقتين لسفر حنين، وحتى تلقيت المكالمة الهاتفية من "مصطفى الشرقاوى" زميل دراستنا الذى كان يحادثنى من أبوظبى ليخبرنى أن الشركة التى يعمل بها افتتحت فرعا لها فى دبى، وتطلب موظفين جددا بمرتبات مغرية. ولم أتردد لحظة. أخبرته بموافقتي، وقلت له إننى سأبدأ فى تجهيز أوراقى فورا.

كانت فرصة السفر إلى "دبى" فى ذلك الوقت رائعة لأكثر من سبب، فهى ستتيح لى مغادرة هذا الجحيم اليومي، وتوفر لى نفقات حنين بشكل جيد، كما ستعطى أبى الفرصة للتوقف عن مساعدتى التى تستنزفه تدريجيا. كما أنها ستتيح لى فرصة السفر لفرنسا بشكل أسرع وأسهل، أو حتى استقبال حنين فى دبى إذا شاءت.

-١٦-

بعـــد دخـــول "رولا" جدول التفاصيل اليومية بدأ فصل آخر من حياتـــي. كـــان قد مر على وجودى فى دبى عامان كاملان، تخللتها علاقات متقطعة، أطولها علاقتى بـــأولجا الروسية.

شاهدتها فى أحد الملاهى الليلية تجلس مع مجموعة من الفتيات اللائـــى بدون لى لبنانيات بأزيائهن العارية وملامحهن الشرقية التى تســـتعير لمســـات غربية فاتنة. تابعت الراقصين على ساحة الرقص العالـــية نسبيا من مستوى أرضية المكان، بينما أختلس النظر إليها، وأطـــيل التحديق بها عندما لاحظت أنها تبادلنى النظرات. طلبت من الـــنادلة الفلبينـــية أن تذهـــب إلـــيها وتسألها إذا كان لديها مانع من مشـــاركتى الطاولة. فوجئت بها بعد دقائق تف أمامى بجمالها الفاتن وهى تسألنى بالإنجليزية عما إذا كنت أمانع من جلوسها معي.

وعبر الحوار المغلف بالتحفظ والأسئلة النمطية عرفت منها أنها مـــن موسكو وأنها جاءت إلى دبى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وأنها حاصلة على دكتوراة، وأن لديها خبرة كبيرة فى مجال تخصصها.

مســـألة الدكـــتوراة جعلتنى أبدى فضولى فى معرفة تخصصها الدقيق فابتسمت وهى تقول:

- ستريب Strip.

ولم أفهم ما تقصد.. فقلت لها:

- هل هذا فرع من فروع الكيمياء؟

فضحكت وهى تفسر لى تخصصها بشكل واضح لا لبس فيه:

- ستريب.. ستريبتيز.. ألا تعرف عروض التعرى؟!

قلت لها ضاحكا إن معرفتى بذلك لا تتعدى السمع، فقدمت لى وعدا بأن تحقق لى فرصة مشاهدة أول عروض التعري، وهو ما فعلته فى نفس الليلة بغرفتها فى الفندق الذى يقع الملهى الليلى فى طابقه الأخير.

وبعد عدة أسابيع استطعت إقناعها أن تنتقل بعروضها المثيرة إلى شقتي. كانت محترفة تماما. تجيد تغيير طريقتها وحركاتها فى كل شىء. وتعلقت بها بسرعة، ربما لأنها ذكرتنى بماريا رغم أنها كانت طويلة ورشيقة وشعرها البنى المجعد منسدل حتى أسفل ظهرها، وأنوثتها طاغية. لكن عينيها الخضراوين كانتا مراوغتين مثل عينى ماريا، تجمعان الغموض والإثارة وربما تشيان بشيء من المكر، لكنهما فى نفس الوقت يشعان الإحساس بالنقاء الداخلى، خاصة عندما تضحك ضحكتها الجميلة التى تجعل من ملامح وجهها لوحة جمال فاتنة.

لكننى سرعان ما اكتشفت أنها لا تجيد أى شيء سوى التعرى وممارسة الجنس التى كانت خبيرة بفنونه، وبالأوضاع الغريبة التى كانت مغرمة بها، وما عدا هذا فالحياة بالنسبة لها لم تكن سوى مجموعة من الأرقام. تحسب حياتها فى دبى بالساعات، عملها فى الملهى الليلى وسهراتها مع الزبائن وأوقات نومها. أما علاقتها بى

فليســـت سوى محاولة للهروب من علاقات أخرى شديدة الوطأة، أو الهروب من الممارسات الشاذة والوحشية التى كانت تتعرض لها من بعض الزبائن.

لم تكن تعرف شيئا عن العالم ولا مصر. فى أول لقاء جمع بيننا أخبرتـــنى أنهـــا تعتقد أننى من تركيا، وظلت حتى آخر لقاءاتنا على قناعتها. فهى لا تعرف شيئا على الإطلاق عن مصر. ولم تكن لديها الرغبة فى إجهاد نفسها بالتعرف على مجتمع آخر من خلالي. ثم إن الفرق بين مصر وتركيا بالنسبة لها لا يعنى شيئا من الأساس.

كانت علاقتى قد بدأت بها بعد أيام من مغادرة حنين لدبى وهى الــزيارة التى قررت حنين خلالها أن تستقر فى باريس لعدم قدرتها علـــى احتمال الحياة فى دبى. قالت لى أنها ارتبطت بباريس.. فكل صـــداقاتها وعلاقاتها وفرص العمل المتاحة لها هناك. وأكدت لى أن وجودهـــا فى دبى حيث يستهلك العمل كل وقتى سيزيد من شعورها بـــالوحدة، بينما زيارتى لها فى فرنسا أفضل لأنه يتيح لنا أن نقضى أوقاتـــا أطـــول معـــاء خاصـــة عندما تتزامن زياراتى مع عطلاتها الطويلة.

وهكـــذا أحسســـت أنه بإمكانى أن أعيش حياتى بعد أن راودنى الشـــعور بالاطمئنان نسبيا على حنين بعد تكيفها الكامل مع المجتمع الذى تعيش فيه.

أمـــا "رولا" فقـــد جذبـــت انتباهى من اللحظة الأولى بابتسامتها الحزيـــنة الهادئـــة، والتى ساهمت فى اقتناعى سريعا بوثيقة التأمين علـــى الحياة التى كانت قد حضرت من أجل إقناعى بالاشتراك فيها.

عيناها السوداوان ضيقتان لكنهما تشعان بالحيوية والذكاء. وجهها يميل لأن يكون مربعا، وذقنها الرقيقة مدببة بدرجة هينة، وشفتاها الواسعتان تزيدان من جاذبيتها. اتصلت بها هاتفيا عدة مرات بدعوى السؤال عن تفاصيل تخص الوثيقة، وبالتدريج طالت المحادثات تدريجيا حتى قبلت دعوتى لتناول القهوة خارج حدود الشركة التى أعمل بها.

التقينا لأول مرة فى المقهى اللبنانى الذى يقع فى المبنى الضخم الذى يحتله "مركز الغرير"، وهو اللقاء الذى أتاح لى اكتشاف جوانب أخرى من شخصيتها بعيدا عن أجواء العمل والرسميات. وهى جوانب روح الدعابة والمعرفة العميقة بالموسيقى والذوق الخاص فى الاستمتاع بالحياة.

فقدت رغبتى فى الحديث من فرط استمتاعى بالطريقة التى تتكلم بها، بلكنتها اللبنانية المميزة، وبحيويتها، ولباقتها، وطريقتها فى تكوين رؤيتها لشئون الحياة التى تفلسفها بوجهات نظر عميقة.

هذه الفلسفة التى أكسبتها قدرة مذهلة على التكيف مع الحياة، مهما كانت قسوة الظروف التى مرت بها. ولهذا كانت تحكى لى عن حياتها وهى ترسم ابتسامة لامبالية، وبنبرة صوت محايدة كأنها تتحدث عن إنسانة أخرى. أخبرتنى عن حياتها فى باريس خلال سنوات الدراسة. قالت إنها وبسبب الحرب الأهلية حاولت أن تستمر بعد إنهاء دراستها هناك. واضطرت، بسبب قلة الفرص المتاحة، أن تعمل كنادلة فى أحد المطاعم، ثم كموديل، لكن مقاييس جسمها

الشـــرقية، رغم أنها تبدو رشيقة، جعلتها تخفق فى الاستمرار. ومع اســتمرار الظــروف الشاقة التى وسمت حياتها فى باريس وحلول الهدوء نسبيا فى بيروت قررت أن تعود إلى لبنان.

بعد أسابيع قليلة ستخبرنى أن السبب الحقيقى لعودتها إلى لبنان هــو الشخص الذى ارتبطت به هناك، والذى كان رافضا لأن يغادر لبــنان أيا كانت الظروف. ثم فاجأتنى وهى تقول لى ببساطة شديدة ودون أن تفقد ابتسامتها، إنه قتل فى الحرب!

لــم أكن أحتاج إلى الكثير من الذكاء لأدرك أنها صاحبة خبرة كبيرة فى الحياة، وبالتالى كان من السهل أيضا أن أفهم أنها لا تريد أن تتورط فى علاقة عميقة، وكان هذا هو بالضبط ما أحتاج إليه. فلم أكن مستعدا لأن أخوض تجربة حب تنتهى بفقدان من أحبها. لم أعد أحتمل شيئا كهذا. بالإضافة إلى أن اختفاء أو موت كريستين قد قتل فى أعماقى شيئا فقدت بعده الرغبة، بالشكل الذى كانت عليه الأمور قــبل ذلك. أعتقد أننى عشت لسنوات مصابا باكتئاب حاد دون أدنى محاولـــة للعـــلاج. ودون أن أدرك أن المرض النفسى قد تمكن منى بقوة ودون تفهم حقيقى لأسباب انطفاء شهوتى خلال كل تلك الفترة.

وهكـــذا، وبعـــد عدة لقاءات كان من السهل أن نصل إلى اتفاق مـــثالى لشكل العلاقة التى بدأت مع انتقالها من شقتها فى "بر ديرة" إلـــى شقتى المطلة على "دوار السمكة"، قريبا من مستشفى المكتوم. أشـــاركها الطعـــام والقراءة وسماع الموسيقى ومشاهدة التليفزيون.. والفـــراش. أمـــا الجـــنس فقد كنا نمارسه كعشيقين يمكن أن تنتهى علاقـــتهما فى أية لحظة. نضع اللذة فوق أى اعتبار، ويتفنن كل منا

فـــى إبهـــار الآخـــر بالمـــتعة. وكأنـــنا نؤدى دورا فى فيلم جنسى يـــبدأ بالـــتعرى وينـــتهى بالأورجـــازم دون أن نعطـــى الفرصـــة لمشـــاعرنا أن تتغلـــب عليـــنا. وهو ما كفل استمرار العلاقة لعامين متواصلين.

واكتشـــفت، بعـــد تـــأمل، أن علاقتى بها كانت نقيض علاقتى الحســـية بكريستين، فمع كريستين كانت اللذة التى نشعر بها يغطيها إحســـاس صوفى كأنها لذة الوجد لدى المتصوف.. اتحاد للجنسى مع الـــروحى، اقتراب من المقدس. بينما علاقتى بـــرولا كان فيها تأكيد على اللذة كهدف أساسى قبل أية قيمة أخرى، حولناها بمرور الوقت إلـــى مـــا يشـــبه الفلســـفة، ليست إباحية ولا انتهاكا للمقدس، وإنما تقديـــس الهـــدف الـــذى يتناقض مع فكرة التناسل، لهذا انهارت هذه العلاقـــة فور أن علمت أنها حامل.. وإجهاضها كان الفتيل المشتعل الـــذى ينـــتهى بشرايين عقلي.. الفتيل الذى قادنى إلى هذه المصحة الكئيبة.

تخلصـــت مـــن عقدتـــى أخيرا، فلم تمت رولا، بالعكس، لأننى اتخـــذت بـــإرادتى قرار انفصالنا النهائى، وقررت لها موت الجنين لأنهـــا أخلفت عهدها. ولكن.. هذه هى الحياة.. ومازلت أذكر جملة أوكتافـــيو بـــاث وأرددهـــا هـــنا مع نفسى أقضى بها على وحدتى اللانهائية: "من أجل الحب نسرق من الزمن الذى يفنينا بضع ساعات نحولها إلى فردوس تارة وإلى جحيم تارة أخرى وفى الحالين كليهما يـــتمدد الزمن ويفقد معياريته"، نعم .. لكنه الآن يقرر مواجهتى فى تحـــد صارم، يخفى بابتسامته الصفراء أنيابه الحادة التى سيعلن بها

فـــنائى.. بحيــث لا يكــون أمـــامى أية خيارات. فريسة تساق إلى قدرهـــا المحتوم، وعلىّ الآن أن أفاجأه أنا أيضاً.. فهل سأتمكن من ذلــك؟ هل يمكننى إعلان انتصارى على الزمن ولو.. لمرة واحدة، وأخيرة؟!

تمت

شكر وعرفان

للأستاذ فاروق عبد القادر على ملاحظاته القيمة على المخطوط وللأستاذ جمال الغيطانى على تفضله بنشر فصول مطولة من الرواية فى أخبار الأدب.

كما أدين بالعرفان للأصدقاء سعد القرش وعبد المنعم فهمى.

صدر للمؤلف

١- باتجاه المآقى	مجموعة قصصية	شرقيات	١٩٩٧
٢- أشباح الحواس	مجموعة قصصية	ميريت	٢٠٠١
٣- كهف الفراشات	رواية	ميريت	٢٠٠٣